

أولاً : رُبْحِي مَرِح

تَدَاخُلُ اللُّغَاتِ وَأَبْعَادُهُ الْإِنْسَانِيَّةُ

الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله

الظواهر اللسانية من حيث تطورها الزمنى وقد أصبحت لهذه الدراسات منذ الأربعينات مجالات واسعة نظرا لاتساع شبكة الاهتمامات لدى علماء اللسانيات فلم تعد الدراسة تقتصر على الفاظ معزولة أى منفصلة عن مؤثراتها بل اندرج البحث ضمن مجموعة تتفاعل وتتكامل موصولة الرباط بفنون شتى كالنحو والصرف والاشتقاق وأسلوب النحت والرص اللغوى انطلاقا من مؤثرات مختلفة واعتبارا للظواهر اجتماعية تكون التعابير فيها مجرد تعريفات للنسب والصلات وحتى الشياى التى تطبع الظواهر وتبرز السمات الدقيقة بين كلمات خضعت لنفس التأثيرات فى لغة ما مع إمكان توسيع نطاق التنظير الى لغات مختلفة وهذا هو ما يمكن أن نسميه « السيميائى المقارن *Sémantique comparée* » حيث يحاول خبراء اللسانيات الانطلاق نحو أفاق أوسع يستشفون فى مجاهلها مواقع الصلة بين لهجات ولغات مختلفة من خلال شبكة انسانية شاملة .

ولا يمكن أن تقرر مدى أهمية هذا العلم بشرط أن لا يقصد به مجرد إبراز تأثير لغة على أخرى

السيميائى *Sémantique* علم يهتم بدراسة معانى الكلمات وتغيراتها متمما بذلك علم الصوتيات *phonétique* المختص بالنطقيات وهو علم ظهرت له أبعاد جديدة ، وإن كان علماء اللغة العرب قد بسطوا القول فى كثير من مجاله — وخاصة حول ظواهر اللغة كجلى للتعبير عن خلجات الفكر البشرى وكذلك تطور معانى الكلمات فى اطار منهجية حديثة هى منهجية التزامن *synchronisme* أى تزامن الكلمة وظواهرها بمعنى بروز هذه الظواهر اللغوية فى زمن ما ضمن تأثيرات الالسن واللهجات وهذا العلم هو ما عرف بالسيميائى التزامنى *Sémantique synchronique* وقد اطلقنا عليه فى بحث سابق (1) اسم «سيميائى المبانى»

وأوليناى عناية خاصة نظرا لبعده العميق الهادف الى استجلاء كل ما يتصل فى عصر ما بالرابطة التعبيرية القائمة بين الدال والمدلول كما اطلقنا اسم سيميائى المعانى *Sémantique diachronique* على العلم الذى يستهدف تحيىس التغيرات الطارئة على مدلول الكلمة ومفهومها أى الكشف عن خاصية

(1) مجلة اللسان العربى م 70 ج 1 ص 5

يمكن تقريبه من كلمة ودر العربية ومعناها نقد وأضل
وأضاع .

— كلمة coffin ومعناها التابوت وهي قريبة
من كلمة « كفن » وهو ما يلف به الميت .

— كلمة delve معناها يحفر وينقب وهو
كناية عن البحث في أسفل كما يقال بالعربية دلا الدلو
يذلوها دلوا أرسلها في البئر ودلاها كذلك وأدلى الدلو .

— كلمة doom ومعناها الشؤم والموت والهلاك
أى كل ما فيه شر وهذا الجذر يشمل كثيرا من الكلمات
التي تؤدي هذه المعنى في اللفتين مثل الضر أو الضيم
والضنك ، ويمكن مقارنة اللفظ الانجليزي هنا بكلمة
ضيم بمعنى الظلم .

— كلمة fake ومعناها زيف ولفق ويمكن
مقارنتها بكلمة افك من الافك وهو الكذب والتزييف .

ومعناها أيضا الحلقة والفلكة أى الحلقة الدائرة .

— كلمة flog تعنى السياط والجلد وهي
شبيهة بلفظة « فلق » ومعناها العود الذى تشد رجلا
المجرم اليه فيضرب عليهما « والفلق » اذا أطلقت
تصرف للجلد والسياط وتوجد كلمة انجليزية أخرى
هى flick معناها ضرب ضربة سريعة بالسوط .

— كلمة fetch ومعناها بحث ويمكن تقريبها
من « فنش » العربية .

— مادة flick تستعمل في وصف حركة
الضوء فيقال flicker بمعنى اضطراب وخفقان النور
وتفيد أيضا الومضة والبصيص ويقال بالعربى فلق
الله الصبح اظهره بكشف الظلام وانفلق الشيء انشق
والفلق الصبح والفجر وما انفلق من عبودها فهو
كناية عن النور في اضطرابه على أن مادة « فلك »
نفسها بالعربى تعبير الحركة والاضطراب والخفقان
فالملك من كل شيء مستداره وكل مستدير فلكه وموج
البحر ما اضطرب من مائه فهاج وماج .

— كلمة hark تعيد معنى الحركة اما جيئة
او ذهابا او مطاردة او اصفاء فكلمة hark-back
معناها عودة الى الوراء .

لاشباع نهم عنصرى أو شوفينى . فهو يهدف من خلال
دراسة تطور الكلمة الى تتبع هذا التطور في ابعاده
بالنسبة لشعب آخر أو مجموعة شعوب للكشف من
ظواهر اجتماعية تعاملت في منطقة ما من مناطق العالم .

وقد استعرضنا في أحد أبحاثنا (1) اللغوية بعض
جوانب هذا الارتباط بين اللغة العربية وبعض اللهجات
أو اللغات المشتقة من اللسان اللاتينى وجمعنا مادة
خاصا يمكن التركيز عليها لدراسة
العوامل التى جعلت كلمة بعينها تؤثر
تأثيرا خاصا في لغة شعب ما في عصر ما مستشفين من
وراء ذلك مدى ارتباط بعض الشعوب ببعضها ببعض
واسباب هذا الارتباط ولسنا نقصد بذلك سوى
محاولات واسهامات أولية لا يمكن أن ننتظر منها الشيء
الكثير غير أنها قد تفتح — اذا ما تبلورت منهجيتها —
آماتا جديدة وثيقة الصلة بنفسانية الشعوب .

وستنخذ اليوم اطارا لدراستنا اللغة الانجليزية
التي حاولنا تجميع نماذج من مفرداتها خلال بحث
موصول منذ سنوات لنصوص علمية بهذه اللغة .

وسيقتمر بحثنا اليوم على استعراض هذه
النماذج مع ذكر مقابلاتها العربية والاشارة الى مختلف
معانيها ومجالات الربط بينها تاركين التعمق في المقارنة
والتنظير والاستنتاج الى بحث لاحق :

— كلمة abide معناها ثبت وصمد وتأبد

ومعنى abiding ثابت دائم من الإبد أى الدهر
الطويل غير المحدود المسى « أبد الأبدين » .

— كلمة beset ومعناها هاجم واكتنف
تحتوى حرفين هما b. s (بس) يفيدان السيطرة
والاحتواء بمد اليد وبسطها ويوجد الحرفان في كلمتين
عربيتين هما بسق وبسط يقال بسق الرجل على الناس
تطاول عليهم وبسط يده على الناس كناية عن التجرؤ
على اذابتهم وقد ورد في الآية : « لئن بسطت الى يدك
لتقتنى ما أنا بباسط يدي اليك لا تمتلك » .

— كلمة bewilder ومعناها اضل وأربك
ويمكن مقارنتها بكلمة adirer الفرنسية وكلاهما

(1) مجلة اللسان العربى م 11 ج 3 ص 228 .

مظاهر الخير كالكرم والفضل والنجدة حيث يقال مثل الرجل مثالة فضل والامثولة المثال الحسن وتماثل العليل قارب البرء وامثل امره عمل على مثاله واطامه والمائلة منارة المرسجة والرجل الامثل اى الاكفصل ويطلق ايضا كما في الكلمة الانجليزية على الحجة .

— كلمة meeknes تفيد الخضوع والخمول وهى مثل كلمة « مسكنة » على ان مادة « كئس » ايضا تفيد الانزواء والخمول والتبوع يقال كئس الرجل اذا دخل خيمته والكئاس بيت في الشجر يستتر فيه الطيى .

— كلمة neigh بمعنى سهل كناية عن صوت الحصان وقد يبرز الاستعمال احيانا في بعض اللغات عدم الدقة في تمثيل الاصوات فهى هنا قريبة من « نهق » المخصصة للتعبير عن صوت الحمار .

— كلمة rash معناها رشح وطلح وتفيد مادتها انتشار الماء مثل رش .

— كلمة slink ومعناها انسلل اى ذهب خفية .

— كلمة shatter معناها كسر وحطم وهى قريبة من شطر .

— كلمة slit ومعناها شق وقطع وقد صلته بالسيف اذا ضربه به وصلت الفرس انقطع عبوه وسيف صلت صقيل قاطع .

— كلمة snare بمعنى اقبولة وشرك وهى الصنارة .

— كلمة sway بمعنى تسلط وسطا وسيطر .

— كلمة swarth تفيد معنى الدكنة والسبرة والسواد فوجود السين والواو (كما في السواد) او السين والميم (كما في swarth وسبرة) يفيد ذلك .

— كلمة tread فيها معنى المشى والسوق والطراد مثل طرده وطارده .

— كلمة tie فيها معنى اللى والثنى والطفى والمعد .

— كلمة gush معناها يسيل ويتدفق ويتعجر وكلمة « جاش » لها نفس المعنى يقال جاشت العين ناضت بالماء وجاش الوادى زخر والتجيع سال وجاشت القدر ارتفع ما فيها وتدفق وجاشت النفس تجسرت حزنا وفزعا .

— كلمة hard معناها صلب قاس عسر والحارد بالعربى الشديد وهو يفيد بالانجليزية الشديد القدرة على الاحتمال وفي العربى المجتمع الخلق الشديد المهيب الذى تحسبه من عزة نفسه غير ذلك .

— كلمة harm معناها الاذى والضرر والحرام كل اذى يحرم اى لا يحل وهذه المادة تفيد المنع او ما يؤدى الى المنع ومنه الحرمان والحرمة ما لا يحل انتهاكه والحریم ما حرم فلم يمس وحریم الرجل ما حماه من الاذى والضرر ومنه تسمية نساء الرجل بالحریم والمحرم ما يحى من الاذى ومحارم الليل مخاوفه ويقال انه لمحرم عنك اى يحرم اذاه عليك .

— كلمة harsh معناها خشن اجش وفي العربى يقال حرش الشيء يحرش حرشا خشن فهو احرش وهى حرشاء والحرش والحرشة الخشونة وحيسة حرشاء بينة الحرش خشنة الجلد .

— كلمة handsome بمعنى وسيم مليح كبير ضخم وهى قريبة من مهتم بمعنى حسن القد معتدل القامة وسيم الطلعة (وهو من الهندام) .

— كلمة kindle معناها يضرم النار ويوقدها ويوهج النور وتجدر مقارنته بكلمة تنديل بمعنى مصباح .

— كلمة lean معناها هزيل ضعيف نحيل أعجف وهو قريب من مفهوم « لين » من الليونة وهى ضد الخشونة ، واللينه الضعف .

— كلمة lore معناها علم ومعرفة ويمكن مقارنتها بكلمة نور العربية وهى كناية عن العلم فى بعض معانيها وقد عرف الامام مالك العلم بأنه نور يندح فى القلب ويقال بالفرنسية lueur

— كلمة mettle ومعناها مثال الشجاعة والمعزم حيث يقال to show one's mettle اى اعطى الدليل والقدر والمثال ولا تكون الا فى ابراز

بل وخاصة في نطاق تداخل اللغات وإبعاده الانسانية
ولا أريد أن يفهم من مثل هذه الدراسة نزوع ما نحو
إبراز مدى اقتباس هذه اللغة من تلك لأن من الصعب
أن نوغل في الاستنتاج حتى في حالة انكشاف بعض
مجالي الشبه أو وحدة المنبع أو تكامل المنهجيات اللسانية
في مجموعة من المجموعات اللهجوية .

ذلك مجرد اسهام يلتقى بعضى الضوء على « وحدة
اللغات » في أصلاتها الانسانية كحلقة في سلسلة
دراساتنا في هذا المجال .

— كلمة wail بمعنى الويل والمويل .

— كلمة wane فيها معنى الاتهيار والقبول
الفناء مثل كلمة faner

— كلمة wield بمعنى ناول باليد فهي كالقلم
الفرنسية alder تحتوى على جذر « اليد » .

تلك نماذج سنحلل بحول الله أبعادهما في بحث
لاحق لا تحت شارة تاريخ « السيمياء المقارن » فحسب



الأنثى والنحلة والنساء

الأستاذ عبد الحق فاضل

من الأيناس وهو الإبصار » . وكان قارب الحقيقة لولا أنه تناولها من معنى الإبصار بدلا من معنى الالفة والانتذاب .

هو يروى كذلك عن الواسطي قوله : « سمي الأيناسيون أنسيين لأنهم يؤنسون أي يرون (كلاهما بصيغة المجهول) ، وسمى الجن جنا لأنهم يجتنون عن رؤية الناس أي يتوارون » . وكلامه هذا عن تسمية الجن صحيح ، لكن هذه الصحة زائدة يقينا بصواب خطئه في تسمية الأيناس الذي يؤيد خطأ الأزهرى .

وما حكاية تائيله .. الأيناس ؟

أنه من (الأيناس) .. وهذا من (الأنثى) ، فهنا . لكن من أين جاءتنا هذه الأنثى اللطيفة فأصبحت لنا مصدر الأيناس والاستئناس والأيناس ، بل والإنسانية ؟

الإنسان .. هذه الكلمة التي تدل عليك أنت القارئ ، وعلى أنا الكاتب ، لها قصة حقيقية بالسمع .

وما سمي الإنسان الا لنسيه
ولا القلب الا أنه يتقلب

ذلك ما زعمه الشاعر . وكنت أعتقد منذ الصغر أنه لم يكن جادا في هذا التخريج اللفظي وأنه إنما قال هذا عنى سبيل التلميح والتندر ، تعبيرا عن تشاؤمه واستخفافه بطبائع بني جلدته البشر .

وما كنت أحسب أن يمتد بي زمني حتى أقرأ في اللسان : « روى عن ابن عباس أنه قال : إنما سمي الإنسان إنسانا لأنه عهد إليه فني » ! الآن أيضا لا أجدنى أصدق صحة نسبة هذا الكلام المبهم غير المدلل عليه ، إلى ابن عباس .

والمعقول عندي أن يكون اسم (الإنسان) متأثرا من (الأيناس) بالضم ، وهذا من (الأنثى) ! ..

على أن ابن منظور يروى كذلك عن الأزهرى أن « أصل الأيناس (كالجنس) والأيناس (كالإبل) والإنسان :

شوك النخل الذى شملته التسمية الرحمية لانه طويل يشبه شكله سنان الرمح ، ومنه سنستخرج كل الالفاظ والمعانى التى ستعرض لنا في هذا الحديث .

من الاسل نشأت صيغة السلاء (كالرمان) وواحدته سلاءة (كرمانة) : شوكة النخل ايضا . ويخيل لنا ان هذه السلاءة هى منشأ فعل سل يسلم فلان الشوكة ، اذا نشبت في جلده فأخرجها .. حتى جاء المعجم ليقول لنا سل المرء شيئا من شيء واستله : انتزعه وأخرجه ، وسل سيفا : سحبه من غمده ، وسل الشعرة من العجين : انتزعا برفق .

وانسل المرء من الزحام (والاصح عندنا : من الجمع) انسلالا : انسحب مستخفيا . ويظهر ان هذا (الانسلال) هو منشأ قولهم نسل ينسل (كذهب يذهب) الشعر والریش نسولا ، وانسل انسلالا : سقط . والنسال (كالسؤال) : ما سقط من صوف او شعر عند النسل ، ونسل الوالد ولدا : ولده ، ولابد انه يقصد سبب ولادته لان الوالد لا يلد وانما هى صنعة الوالدة . والتناسل : التوالد .

ونود بهذه المناسبة ان نزجى صيغة ، بل صيغتين ، من مادة (ن س ل) بمعنى مستحدث ، هما أولا : (المنسال) نقترح استعماله بمعنى آلة التناسل للذكر والانثى كليهما . صحيح ان الفصحى استعملت (الفرج) بالمعنيين لكن هذه الكلمة تخصصت بالمرأة ولم يعد بالامكان استعمالها بهذا المعنى المزدوج دون قرينة مميزة . لكن (المنسال) بصيغة اسم الآلة لكلا الجنسين يفي بالرام . وجمعها مناسيل ، مثل مفتاح على مفاتيح ، ومصباح على مصابيح .

الصيغة الثانية التى نقترحها هى : (المنسل)

— زنة المذهب — بمعنى (الجنس) الذى يستعمل في عدة معان منها مقابل (sex) في مثل قولنا الشؤون الجنسية .. ومنها بمعنى السلالة مقابل (race) كالجنس الاصفر .. او مقابل (species) اى النوع من اجناس الحيوان او النبات .. او مقابل (kind) في (mankind) :

انها قيل كل شيء منحدره من (الاس) . وعسى الا يستعجل مستعجل فيظن الامر من السهولة بحيث يلوح للنظر السريع . سيقال ان النون اضيف الى (الاس) بكسر الهمزة — فنشأ (الانس) بالكسر ايضا ، وهذه تطورت فصارت (الانسان) .

فأين الانثى ؟ كلا ، لا يكفى تحوير اللفظ دون التغات الى المعنى . ان في المعجم العربى عشرات الالوف من الكلمات ينبغى ان تعرف منها الكثير تستحضره في ذهنك لتتعرف العلاقات القائمة بينها ، شأن المتقنى (*) يجب ان يستحضر في خاطره شخصيات الكثيرين من أهل البلد مع صفاتهم وسجاياهم ونزعاتهم وخصائص البيئة التى يضطربون فيها ويتعاملون ويتفاعلون معها ، مع معرفة ما تيسر من ماضيهم واحداث حياتهم .

فاذا نحن تحرينا شخصيات الالفاظ المتصلة بموضوعنا ورجعنا القهقرى بحثا عن الماضى ، وجدنا انفسنا قد عدنا الى (الاس) بالفتح والكسر والضم ، واذا بهذا الاس ينبج لنا الكثير من الالفاظ ، احدها (الاسل) زنة العسل : نبات دقيق الاغصان طويلها واحده اسلة (زنة بصلة) . وقد اتخذوا منه الرماح ، ثم اطلقوا اسمه هذا مجازا على الرماح نفسها ، ثم على النبل .. ثم على شوك النخل . وصارت (الاسلة) تعنى ايضا : طرف اللسان ، والذراع ، ثم اطلقت على الطرف المستدق من اى شيء .

ومن الاسل نجم : العسل والاصل والياصول والوصل (ومنه الفصل) والعنصل (بالضم) ، وما الى ذلك مما لا شأن لنا به هنا . لكننا نكتفى بالقول ان مادة (اس) من الخصب والسخاء بحيث جهزت معجمنا العربى بالكثير من الالفاظ القيمة الخطيرة . ومن كان قد سائرنا في احاديثنا اللغوية في هذا « اللسان العربى » لا بد انه قد لاحظ تكرر عودتنا الى (الاس) في تأثيل مختلف الكلمات .

لكننا نأخذ من كل ما تقدم ذلك (الاسل) بمعنى

(*) زنة المتشفى : الشرطى السرى الذى يتقنى آثار المجرمين وغيرهم . وكان العرب يطلقون على من التقنى هذا اسم القيافة .

والعلاقة بين اللسان والسل سجلها الشاعر العباسي المتحذلق في كلامه على زهرة البنفسج التي تثبت لها زائدة جانبية كالذؤابة ، ففسر ذلك بقوله :

رغم البنفسج انه كعذاره
حسنا ، فسلوا من قفاه لسانه !

فلنا انهم سموا اللسان (نسالا) اول الامر ، فنحن الآن نطالب القارئ بأن يحاسبنا على ذلك ويطلبنا هو بالدليل .

اولا رأينا انهم قالوا نسل شعر أو ريش : بمعنى : سقط . ولقد استعملوا هذا الفعل متعديا ايضا فقالوا نسل شعرا او صوفا : انتفضه واسقطه . . كما استعملوا (النسال) — بالضم — بمعنى ما يسقط من صوف أو شعر عند النسل — أى عند انتزاعه ومنتفضه . فلا عجب اذن انهم استعملوا (النسال) بمعنى اللسان الذى ينسلونه وينتزعونه . وقد بقى من معنى الانتزاع قولهم انصل شيئا من شيء : أخرجه .

والمسألة هنا ليست مسألة استنتاج وحسب ، فان بعض اللهجات المغربية تسمى اللسان (النسال) فعلا . وقد استغرقت حين طرقت اللفظة سعى اول مرة وحسبتها تحريفا عابيا للفصحى ، كما هو شأن الدارجات أحيانا ، لكن التأثيل قادنى الى عكس هذا الظن أى الى الاعتقاد بأن (النسال) هو ائل (اللسان) بالفصحى ، واذا بالفصحى هى المحرفة للكلمة . . العامية !

بعد ان استقرت صيغة (اللسان) وثبتت مبنى ومعنى — صارت تعنى كذلك ، المقالة ، والثناء ، والرسالة . . واللغة .

وهى بمعنى اللغة تنطق بالشين فى الاكديّة (= البابلية القديمة) : لشان .

ومن معنى اللغة ايضا : لسان ابن منظور : أى معجم « لسان العرب » . . ثم هذا « اللسان العربى » الذى تحت بصرك .

ثم هم اطلقوا (اللسان) — استعاراً — بالاضافة الى ما تقدم — على ما استدق وطال من بعض الاشياء ؛ كلسان النار . حتى النعل اذا استطال صدرها سموه

الجنس البشرى . . او مقابل kind اطلاقا او sort او genus بمعنى النوع او الصنف من أى شىء . . او مقابل (nationality) أى الجنسية ، ونقترح لها : (الرعوية) . . او مقابل (generic noun) اسم الجنس فى علم التحو .

فتخفيفا عن كاهل هذه الكلمة المثقلة بأعبائها نقترح (المنسل) . . مثل المذهب الذى كان يعنى أمره مكان المذهب أى طريقته ثم صار اسما يعنى العقيدة والنحلة ، وكالمطلب والمأرب والمكسب ، وكلها على صيغة اسم المكان لكنها لم تعد لها صلة بالمكان ولا بالزمان . وعلى هذا نسمى الجنس (منسلا) ، والجنسى (منسليا) ، والشؤون الجنسية (منسلات) . . ويبقى (الجنس) تاصرا فى الاستعمال على (الجنسين) أى (جنس) الرجال و (جنس) النساء ، دونما علاقة بالشؤون التناسلية ، كتكولك الجنس اللطيف والجنس الفظيع أو الخشن !

اللسان :

لم أجد فى المعجم ، لكننا كلنا وجدنا فى الكثير من مطالعاتنا قولهم سلوا لسانه : انتزعه — بشدة طبعا — لا كما يسلون الشعرة برفق من العجين لرققتها اشفاقا عليها من أن تنقطع ، لان المقصود من سل اللسان ما هو الا قطعه . ولا ننس أن الكثير من الاعضاء انها اكتسبت تسمياتها من معنى قطعها أو شقها أو كسرها (كالذى أوضحناه فى فصل « العنف فى تسمية الاعضاء » — اللسان العربى : العدد 10 — ج 2 — ص 3) .

وكان سل اللسان فى اول امره يخص الحيوان . ومقصودنا انهم كانوا قد سموا اللسان (نسالا) لانهم كانوا ينسلونه أى يسلمونه من فم الذبيحة بعد انضاجها طبخا أو شيا . .

على ان أعضاء الانسان المحترم ومنها اللسان لم تسلم من الجائحة . فقد جعلوا يسلمون لسانه حيا ، وهو أفطع ، عقابا أو تعذيبا ، ومثل ذلك انهم كثيرا ما صلحوا اذنيه أو سلحوا عينيه ، ولا بأس علينا أن نلاحظ فى طريقنا ، استطرادا ، ان الفاظ السلم والسلم والنسل مرجعها التأثيلى واحد هو سل يسلم سلا .

لسانا . ومن ثم قالوا لسنت (بالتشديد) شيئا : جعلت طرفه كطرف اللسان أو جعلته على شكل اللسان .

وقالوا — استعارة أيضا — لسنت (كضربت) فلانا : أخذته بلسانك وذكرته بسوء . ولسنت الجارية : تناولت لسانها ترشفا . ولا تعلم أى أحب اليك أن تلسن الجارية ترشفا أم أن تلسن الناس اغتيايا وتلذذا، لكن الذى تعلمه أن جانب السوء أخصب لغويا فان تلك الجارية — أحسن الله اليها — لم يرد لها ذكر بعد ذلك فى المعجم ، لكن الذى يرد ذكره فيه هو قولهم لسنت المعرب فلانا : لدغته ، أما تشبيها لشكل زباناها باللسان (شكل لسان النعل يشبه شولة المعرب فعلا) .. واما لان لسنتها تشبه تقول بنى الانسان بعضهم على بعض بالشر .

الملاك :

يا طالما تحيرت فى أثل قولهم الكنى اليه (زنة اغثنى) بمعنى : بلغه رسالتى ، أو كن رسولى اليه ، واذا بكلمة (لسان) وتطور معانيها تحل لنا المشكلة . لقد رأينا توا أن (الرسالة) من جملة معانى اللسان . ومن هذا قالوا السن فلان يلسن السانا (كأحسن يحسن احسانا) بمعنى : أبلغ رسالة . وقالوا السن (فعل أمر) لى فلانا والسنى (أمر بتشديد النون) فلانا كذا وكذا : أبلغه لى كذا وكذا .

ثم هم نطقوها بالكاف بعد ذلك من نفس الوزن على الاغلب : (الكنى) بتشديد النون أولا ، ثم تحورت الكلمة تخفيفا فصارت (الكنى) بسكون الكاف وكسر اللام والنون المخفف وهى الباقية فى المعجم وفى شعر العرب . ومنها صاغوا فعل الك يالك (كضرب يضرب) بمعنى ترسل ، أى صار رسولا .

هنا يأتى الملك (زنة البلد) الذى تدرجه المعاجم فى مادة (الك) باعتباره قد اشتق منها بصورة (مالك) — زنة مسلك — أولا ، ثم حذفت همزته ، والهزة كما هو معلوم كثيرة التعرض للحذف أو التخفيف . وصار (الملك) يعنى (رسول) السماء . لكن همزته ظلت تظهر لتثبت وجودها فى صيغة (ملك) وهى مقلوبة (مالك) المندثرة ، فذلك حيث يقول شاعر :

فلمست لانسى ولكن لملاك
تنزل من جو السماء يصوب

فواضح من صيغة (الملك) أنهم خففوا همزتها أولا فظهرت صيغة (الملك) — كالنمام — مرادفة لصيغة (الملك) زنة الفلك .

وقالوا الكه (كضربه) يالكة ألكا : أبلغه الالوك (كالالوف) أى الرسالة . هنا تعرض لنا ملابسة لغوية ممتعة تورط فيها قدامى اللغويين ، هى انسا نجد هذه (الالوك) فى قولهم « هذا الوك صدق ، وعلوك صدق ، وعلوج صدق : لما يؤكل » ! كذلك قالوا « الك الفرس لجامه : علكه » .

فالالوك بالمعنيين — الرسالى والطعامى — ليست بالكلمة الواحدة ، وانما هما كلمتان من اثنتين مختلفين ولو أنهما اتفقتا نطقا فى لفظة واحدة . فالالوك الرسالة أثلها كما رأينا هو اللسن .. فى حين أن الالوك الطعام أثلها الاكل والعلك فالعلس فالعسل . فمن الاكل : « الوك صدق : ما يؤكل » ، ومن العلك : « الك الفرس لجامه : علكه » . لكن مآل الاثنتين كليهما على اختلاف معنييهما هو هذا الأثل المشترك البعيد الخطير (الاسل) .

« الليث : الالوك : الرسالة وهى المالكة ، على مفعلة ، سميت الوكا لانه (كذا) يؤلك فى الفم ، مشتق من قول العرب : الفرس يالك اللجم (جمع) ، والمعروف يلوك أو يعلك أى يمضغ . ابن سيده : الك الفرس اللجام فى فمه يالكة : علكه ، والالوك والمالك (كالمأمـن) والمالكة (كالمركة) والمالكة (كالمكرمة) : الرسالة لانها تؤلك فى الفم » ! — اللسان

فالذى أوتق الليث وابن سيده — على جلاله تدرهما — فى الخطأ عند تلمسهما الحقيقة ، هو تطور كلمتين مختلفتين فى اتجاه واحد حتى انتهى بهما الامر الى الاندماج فى لفظ واحد ، كالذى حدث فى تطور كلمات أخرى .

المليك والمالك :

انتقل المعنى من الملك (كالفلك) — الكائن السماوى — الى الرب الاله أولا ، مثل كلمة (الرب) نفسها تعنى الاله والمالك والسيد والمصلي . ثم انتقل

« قالوا للحن (كاللحن) ستة معان : الخطا في الاعراب ، واللفة ، والغناء ، والفطنة ، والتعريض ، والمعنى » - اللسان .

نضيف الى معنى الغناء هنا قولهم « لحن تلحيناً في قراءته : طرب تطريباً وترنم » . والظاهر انه كان يطلق كذلك على كل صوت منغوم كما هي الحال عندنا اليوم ، فمن هنا فيما نتوهم نشأ (النحل) لان لطيرانه طيننا ونفماً ، واحدته : النحلة .

لقن :

ومن (لكن) كذلك نشأ اللقن والتلقين بمعنى الفهم والتفهيم . واللقن واللقنة واللغانة واللغانية (كالعلائية) : سرعة الفهم والفطنة (وهذه كما رأينا من معاني اللحن الستة) .

والتأخرون يستعملون (التلقين) بمعنى التعليم وتحفيظ الكلام أو طلب ترديده بعد الملقن . من ذلك (الملقن) في المسرح يساعف الممثلين بالفاظ ادوارهم كلما نسى أحدهم شيئاً منها . ومن ذلك أيضاً تلقينك محتضراً الشهادتين وغيرهما من الادعية ، أى تفوهك بهما ليردهما المحتضر بعدك . لكن لا أثر لهذا المعنى في المعجم العربى . فهل وجده المعجميون واعتبروه مولدا فلم يأخذوا به ، أم انه ظهر متأخراً بعد عهد التعجيم (= جمع المعاجم) ؟ كذلك يقول معاصرونا لقتنه درسا : انتقمت منه أو عاقبته وجعلته عبرة لنفسه .

اللحن :

أما هذا فيظهر انه انما نجم من معنى سلطة اللسان في (اللسن) آتفا . قالوا « فلان يتلاعن علينا : اذا كان يتماجن ولا يرتدع عن سوء ويفعل ما يستحق به اللعن » .

ثم صار اللحن يعنى : السب ، والطرده من الخير . ثم صار التلعين : التعذيب .

اللسن :

جمعوا اللسان على : السنة ، واللسن (بضم السين) ، ولسن (بضميتين) ، ولسانات .

معنى الملك الى البشر . يقول المعجم ان « المالك والملك والملك (بكسر اللام أو سكونه) : صاحب الملك والرئيس الحاكم للامة » . أى ان المعنى صار الى التملك والسلطة ، لكن معنى الالوهية لم يذهب عن الكلمة فان كلا من المالك والملك من الاسماء الحسنى ، وقد عبدتا (بالتشديد ، وعلى المجهولية) فى التسمية فقبل عبد الملك وعبد المالك . والآية « مالك يوم الدين » يقرأها نافع أحد السبعة وبقرآته يأخذ اهل المغرب « ملك يوم الدين » - ما يدل على ان الكلمتين كانتا سواءا عند العرب .

وقد صيغ الفعل ملكت شيئاً تملكه ملكاً (كضربته ضرباً ، وللصدر صور أخرى) : كنت حائزاً له ومقتنياً (حسب تعريفنا ، اختصاراً لتعريف المعجم) وعلى المجاز قالوا ملك فلان نفسه وتمالكها : ضبطها وسيطر عليها عند غضب أو شهوة . والملكة (بالتحريك) : التملك . وصارت عند المحدثين تعنى الموهبة والحدق الفطرى فى علم أو فن .

ومن معنى الحيازة والسلطان صار الملكوت : الملك العظيم ، ثم العز والسلطان . . . وصار فى التعبير الدبنى يعنى ملك الله ، أى السماوات والأرض .

الكنة :

ومن مشتقات اللسان : (اللسن) - كالرسن : الفصاحة ، وسلطنة اللسان . والمسون : الكذاب . أما لكن يكن لكنا (كفرح فرحا) ولكنة (كلقمة) ولكونة (كعقوبة) ولكنونة (كأعجوبة) فتعنى : عى ونقل لسانه ، أو كان لا يقيم العربية لعجة فى لسانه .

اللحن :

ومن (لكن) هذه ظهر (اللحن) - كاللبن : اللغة (أى كاللسان) أو الفطنة (أى كاللقن ، الذى سيأتى حديثه بعد) .

وقالوا لحن (كضرب) فلان : تكلم بلغته ، وهذا المعنى قريب من (لسن) من جهة ، وشبيه به (لكن) من جهة أخرى لان المقصود ان المتكلم غير عربى . والكنة (بالضم) : التكلم بالعربية بلهجة فيها عجة ، واللحن : تكلم المرء بلغته (الاعجمية) .

ثم قدر الله ان يسقط اللام عن احدى هذه الصيغ او احدى صيغ اخرى منقرضة - حين استنقلوا ان يقولوا : الالسنة والالسن واللسن . . فقالوا السن (زنة الجن) . ثم كان ان تخصصت هذه الصيغة بهذا العظم الصغير النابت في الفك . وجمع السن : اسنان واسنة (كجمع السنان !) واسن (كجمع الكف على اكف) .

والتسمية جاءت فيما نظن عن طريق العقرب فالانعى . ذلك بانهم قالوا : لسنته العقرب الانفة الذكر ، بمعنى لدغته كما راينا ، ثم قالوا : لسبتسه الحية ، بنفس المعنى . وابدال النون باء له في العربية اشباه وان كانت قليلة ، منها تحنب عليه : تحنن ؛ ويث خيرا : نثه .

والحية لا تلدغ بذنبها كالعقرب بل بنابها اى بسنها ، فمن اجل هذا انتقل معنى اللدغة الى العضة ، قالوا سن فلانا يسنه سنا (زنه شده يشده شدا) بمعنى : عضه بأسنانه اولا ، ثم بمعنى طعنه بالسنان ، استعارة ، اى ان سنان الرمح هذا هو الذى نجم من سن بنى آدم والعياذ بالله ، لا العكس . وان كنا بهذا التخريج قد برانا اخانا الحيوان ضمنا ، فلاننا نتوهم ان التسمية جاءت من اول عضه تلتاقها الام الرؤوم من رضيعها الناكر للجميل حين يستمتع بتجربة سنه الجديدين في عض حلقة الثدي الذى سقاه مادة الحياة .

ومن رهافة السن ومضائها - ولعلها سن الرضيع ايضا - جاء قولهم سن سكيئا : شحذه واحده ، اى جعله حادا ماضيا كالسن ! ثم قيل سن رما وسننه واسنه (وكلها بالتشديد) : ركب فيه سنانا . . واصل المعنى : ركب فيه سنا ! .

وكانوا وما زالوا يقدرون اعمار بعض حيواناتهم بفحص أسنانها . ومن هنا صارت السن - وهى مؤنثة - تعنى العمر نفسه . يقال : كم سنك . . اى عمرك ؟ وقد اجاب احد المباحكين : اثنتان وثلاثون ! يعنى عدد اسناته . فقال السائل : ما سنك ؟ . . فاجيب : عظم ! . . في حكاية مشهورة .

ثم ان العرب قالت اسن رجل : شاخ ، بعد ان قالوا اسن صبى : نبتت أسنانه .

ودليلا على كثرة استعمال السن في المجاز والاستعارة نذكر انها اطلقت كذلك على شعبة المنجل والواحدة من شعب المشط وتنتوءات المنشار ونحوها ، وعلى الحبة من رأس الثوم ، وعلى مكان البرى من القلم (اى اسلته) ، وعلى حرف فقار الظهر .

والسنة (كالحبة) : الفهدة ، ربما من معنى النهش بأسنانها ، ثم اطلقت على الدبة من باب الخلط التطورى ، بعد ذلك فيما يظهر . وما اكثر ما استعملوا اسما واحدا لاكثر من حيوان ، بل لعدة حيوانات في بعض الاحايين .

اما السنة (كالكسكة) فهى : الفأس لها حدان ، ربما من معنى ظهور الاسنان شفعا شفعا في البداية ، فاستعاروا الواحدة منهما لتدل على حدى الفأس المزوجة كليهما .

السنة :

ومن السن او احدى صيغها نشأت صيغة السنة (كالشفة) . ومن تقدير عمر الدواب بالسنوات عند فحص أسنانها اكتسبت (السنة) معنى الجول اى دورة العام .

وتنطق السنة بالبابلية (شتى) ومنها (ريش شتى - resh shatti) : رأس السنة . ولا بد ان اثلها قد كان (شنتى) ثم ادغموا النون في التاء .

وجمعوا السنة على : سنوات وسنهات وسنون (بالكسر) وسنون (بالضم) . ونظن هذا اثل السنونو (بالضم) وهو طائر موسمى يظهر (سنويا) في صيف المناطق المعتدلة .

وتشعبت الصيغ فقالوا اسنى القوم في موضع ، يسنون اسناء : ليثوا فيه سنة .

لكنهم اذا ذكروا السنة مطلقة تصدوا بها الازمة او السنة المجدية ، في مثل قولهم : أصابتهم السنة . وهو دليل على انه منها نشأ الاسنات (كالأحسان) ، فكما قالوا أسنوا يسنون (كأمسوا يمسون) قالوا اسنتوا يسنتون اسناتا فهم مسنتون : أصابهم سنه (بالهاء ، لا بالتاء) وقحط واجذبوا . وهذا منشأ قولهم المسنتة (كالمحسنة) والسنتنة (كالشرسنة) :

الارض لم يصبها مطر ، ثم قولهم رجل سنتت (كثرس) :
تليل الخير .

« واصل السنة سنه بوزن جبهة فحذفت لامها
ونقلت حركتها الى التون فبقيت سنة لانها من سنهت
النخلة وتسنهن اذا اتى عليها السنون . قال ابن
الانثر : وقيل اصلها سنوة (كسحوة) بالواو فحذفت
كما حذفت الهاء لقولهم تسنيت عنده اذا اقيمت عنده
سنة « - اللسان ، مادة (س ن ه) .

يرى قارئنا الكريم من هذا وامثاله ان الاتميين
كثيرا ما تناولوا المعاني والالفاظ وحاولوا معرفة نشوء
بعضها من بعض لكتهم في حالات غير تليقة عكسوا
الامر فخالوا الفرع اصلا والاصل فرعاً ، كما
يفعلون هنا .

ثم قالوا ساتى فلانا مساناة وسناء (كسلاحا) :
استأجره أو عابله لسنة .

ونطقوا السنوات (سنهات) كما تقدم ، كما
نطقوا المساناة (مساناة) بمعناها الأنف . والفعل
سنه يسنه سنها (كفتح فتحا) : مرت عليه سنون .
وسنه طعام أو شراب : تفر (وهذا من باب المبالغة
كأنها مرت عليه سنهات) .

وسانتهت رجلا : عابله بالسنة . والنخلة سانتهت :
حبلت سنة بعد سنة .

لكن مادة (س ن ه) ايضا لم تخل من معنى
الجذب فقالوا السنهاء من النخل : التي اصابتها السنة
المجدبة ، أو التي تحمل سنة ولا تحمل اخرى .

النسيان :

من السنة والمسناة ظهر النساء (كالسما) :
طول العمر . . وواضح ان المقصود كان كثرة (السنين) .
اما النساء (كالنشء) فمعناه : التأخير يكون في
العمر أو في الدين ، والنساة (كالنشأة) والنسيئة
(كالبريئة) : التأخير والتأجيل . ومن ذلك جاء قولهم
نسنت المرأة : تأخر حيضها .

ومن معنى التأخير والتأجيل قالوا انسائه الدين
أو البيع : أخرته ، أي جعلته مؤجلاً . واسم ذلك

الدين النسيئة . وهي تنطق في الفارسية (نسيه)
- زنة نسبة - بمعنى البيع بالدين .

ونأتى الى (النسو) - كالنحو - فمن قولهم
(نسا ينسا نسا) بالهمزة ، ظهر (نسا ينسو نسوا)
بتخفيفها : ترك عمله . وانساء ينسوه شيئا : امره
بتركه .

أما جموع المرأة : النسوة والنساء والنسوان :
منه لغويا أي تأنيلا من باب (الناس والانسان) ، ولو
ان المعجبين يدرجونها بدون مناسبة في باب (النسو)
هنا . خدعهم هذا الواو في اللفظ دون أن يعيروا المعنى
التفاناً .

ومن قولهم آتفا (انساء شيئا) : امره بتركه ،
أو من صيغة مماثلة صار قولهم (انساء شيئا) يعنى :
جعله ينساء - والفرق ان هذه الاخيرة مدرجة في مادة
(ن س ي) ، بينما الاولى في مادة (ن س و) . وبتعبير
آخر انه لما كانت (نسا ينسو نسوا) تعنى :
ترك عمله ، صارت نسي (كخرج) نسيا ونسيانا ونساية
(كبناية) ونسوة (كندوة) ونساوة (كعداوة وعلاوة) :
ضد تذكره . . (واذا طلبت في المعجم تذكرت شيئا ،
قال لك : ضد نسيته) : لهذا نقول للقارئ في تعريف
النسيان ولو انه لا يحتاج الى تعريفه انه : غياب
الشيء عن البال .

ونذكر على سبيل الترفيه عن قارئنا العزيز جدا ،
والتخفيف من جدية الموضوع ، قول أحد الظرفاء
العراقيين ، في النسيان - ولا أعرف اسمه - لاني
(نسيته) :

قد بلغ النسيان بي أنه
لم يبق لي بالا ولا حسا
فصرت اما عرضت حاجة
تهنى أودعتها الطرسا
وصرت أنسى الطرس في راحتى
وصرت أنسى أنسى أنسى !

اثان :

لا بد ان بعض العرب نطقوا السن بالثاء ، وكانوا
عندئذ - في عهد لغوى سحيق - يجمعون بالالف

اه اللسان .

وعلى هذا كان من جملة تفسيرات الآية « انك بالواد المقدس طوى » ، قولهم ان المتصود هو الوادى المقدس مرتين .

نجد (طوى) بنصها (twa) في السكسونية بمعنى الاثنين ايضا . وتقريب منها النطق الايطالى (دوه — due) وقد انهلست الكلمة شيئا في (دو — du) بالفارسية والسنسكريتية ، ولا نعلم كيف كانت تنطق فيهما اول امرها . لكننا نجد من آثار الانملاص صيغة (deux) الفرنسية التى يثبتون فيها الحرف الاخير كتابة ويحذفونه نطقا ، ويدمجون الحرفين الثانى والثالث في حركة مديدة واحدة .

الانثى :

تعرض لنا في طريقتنا (تقليمة) لغوية غريبة .. هى ان صيغة (الاثنتين) — تثنية الانثى — تعنى شيئا خاصا بالذكر اى غدتى الذكورة .

الانثى ، يقول المعجم انها خلاف الذكر ، واذا رجعنا الى الذكر قال لنا انه خلاف الانثى ! فاذا لم تكن نعرف احد التقيضين سلفا في هذا وامثاله كالنور والظلام ، والليل والنهار ، والقريب والبعيد ، والقوى والضعيف .. فقد ضعنا .

مهما يكن فما من احد يجهل ان الانثى هى الجنس الذى يحبل ويلد من الحيوان ويزهر نيشر من النبات ، وان الذكر هو الجنس الذى يلتح ويترك المقادير تجرى فى اعنتها .

الانثى من اين نشأت ؟ وما علاقتها الايجابية او السلبية بالانثيين ؟

يقول المعجم ان الاثنتين : مثنى الانثى . الخصيتان ، الاذنان . وانثيا الفرس : ربلتا فخذيا ، والاثنيان من احياء العرب : بجيلة (كقبيلة) وقضاعة .

والنون (ن) ، فجاء جمع السن (ثنان) بدل (سنان) و (الثنة) بدل (السنة) — بالكسر ، وبعد شيء من التحوير التطورى نجمت (الثنية) زنة الهدية : واحدة الثنايا ، وهى الاسنان الاربع فى مقدم الفم ، (ثنتان) من اعلى و (ثنتان) من اسفل .

هذا يفسر لنا كيف صارت (الثنتان) تعنى العدد الذى بين الواحد والثلاثة ، اى ضعف الواحد — لان هذه (الثنايا) الاربع تثبت (اثنتين اثنتين) . ثم انبثقت صيغة المذكر (انثان) التى تشبه جمع السن على أسنان .

وسرعان ما صاغوا بعد ذلك الفعل : ثنى يثنى (كجنى يجنى) شيئا : « طواه أو عطفه » — اى طوى الثوب مثلا وعطف الفصن وثناه (بالتشديد) تثنية : جعله اثنين . وصارت : (اثناء) الشيء و (ثناياه) : تضاعيفه ومطاويه ، و (اثناء) الحية : مطاويها اذا (ثنتت) .

والثنيان (كالبنيان) : « الرجل بعد السيد ، اى الثانى فى الرياسة » ، او بتعبير آخر : الذى يلي الرئيس ويحل محله اذا غاب . ونحن اليوم بحاجة الى احياء هذه الكلمة فى عريبتنا المعاصرة .

ان فعل (طوى طيا) مرادف لفعل (ثنى ثنيا) وقد جعل العرب لكليهما علاقة بالعدد (اثنين) لكن بطريقة متعاكسة . ذلك ان (الثنى) نشأ من (الاثنين) ، فى حين ان (الطى) منه نشأ (الطوى) — زنة الهدى — بمعنى التثنية ايضا . اللسان : « واذا كان طوى وطوى (بضم الاول او كسره ثم فتحة منونة) هو الشيء المطوى مرتين فهو صيغة بمنزلة ثنى وثنى (بالضم او الكسر كذلك) ، ، كما قال الشاعر :

اى جنب بكر قطمتنى ملامة ؟

لعمري لقد كانت ملامتها ثنى

وقال عدى بن زيد :

اعائل ان اللوم فى غير كنهه

على طوى من غيك المتردد «

* يراجع كلامنا عن « التثنية والجمع » فى كتابنا « مغامرات لغوية » و « اللسان العربى » — الممدد 5 غشت 1967 .

وحسبنا هذا مادة للتحيص والاستنتاج . فتأمل هذه المعانى عزيزنا القارئ وتعاون معنا فى استخلاص الحقائق الجلية من هذا الخليط الغامض ، ثم قل لنا ما علاقة القبيلتين المبريتين الكبيرتين بجيلة وقضاة بالانثيين وربلى الفخذين من الفرس ؟

من الواضح جدا من تدبير هذه المعانى أن (الانثيين) مجرد تحريف من (الانثين) لذلك أطلقوها على اشغاع كثيرة من الاشياء — قياسا على الثنيتين اى السنين الاماميتين — بل ربما أطلقوا (الانثيين) على كل شغع اى على كل قرنيين متلازمين من الاشياء، وعلى كل الاعضاء المزوجة ، ثم زالت تلك المعادة اللغوية التى كانت قياسية فيما نظن وتخلفت من آثارها هذه الاشغاع التى يذكرها المعجم ، ومنها قبيلتان كان لهما شأنهما بعضهما مع بعض من خصام ووثام .. فيرد ذكرهما معا كما كان يقال بكر وتغلب ، وكما لا يزال يقال اليوم فى نجد واتحاء بادية الشام : شمر وعنزة .

« وقال ابن سيدة : وقول الفرزدق :

وكنا اذا الجبار صمر خده

ضربناه تحت الانثيين على الكرد *

قال يعنى الانثيين ، لان الاذن مؤنثة « اللسان .

وما نرانا نوافق ابن سيده على تأويله هذا لان مجرد كون الاذن الواحدة مؤنثة لا يبرر تسمية الانثيين انثيين ، فالعين ايضا مؤنثة ومثلها اليد والساق والخاصرة .. الخ . وانما الصواب ما قلناه ، وهو ان الانثيين سميتا انثيين لانهما اثنتان ، شأنهما شأن ربلى الفخذين وتينك القبيلتين .

فمن هنا أطلقوا (الانثيين) على الغدتين الخاصتين

بالذكورة ، كذلك .

وبشئ من التأمل يبدو من الواضح — ربما جدا ايضا — ان لفظة الانثيين أطلقت على القرنيين من بنى الانسان : المرأة والرجل ، مثلما نقول الآن : الزوجين .

* الكرد ، زنة الطرد : اصل العنق .

لكن لماذا اختصت كلمة (الانثى) بالمرأة دون الرجل ما دام الاثنان — الزوجان — رجلا وامرأة ؟ واضح للمرة الثالثة ان السبب قد كان نحويا ، قبل ظهور علم النحو بقرون نهج تعدادها . ذلك انهم عند ما افردوا (الانثيين) جاء المفرد بيدهم (انثى) وهى صيغة تأنث كالجبل ، فاختصت من اجل ذلك بالمرأة . وجمعوا الانثى على : اناث واثث (كسفن) واثثى (كجبالى) .

واستخرجت من (الانثى) اشتقاقات تدل كلها على الرقة واللين . قالوا هذه امرأة انثى : اذا مدحت بانها كاملة من النساء . والمؤنث : الرجل المشبه بالمرأة فى لينه وتكسر أعضائه . واثث تأنثنا : جعله مؤنثا او عده انثى او خنثه (بالتشديد) .. وبلد انثى : لين سهل ، ومن ثم ظهر قولهم مكان انثى : اذا أسرع نباته وكثر . ويروى لنا اللسان تخريجا طريفا حيث يقول : « وزعم ابن الاعرابى ان المرأة انما سميت انثى من البلد الانثى ، قال : لان المرأة اللين من الرجل ، وسميت انثى للينها » . ومن قوله « زعم » يتضح انه لا يتفق معه . لا تلوم ابن الاعرابى فى تخريجه هذا فى ذلك الزمان بدلا من ان يقول المكس اى ان اشتقاقات الانثى هى التى اكتسبت معنى اللين من المرأة . كان القوم يتخبطون فى كل اتجاه بحثا عن الحقيقة . فمرحى لهم فيما أصابوا فيه ، ولا لوم عليهم ان اخطأوا لكن هذا لا يمنع ان نميز منهم بين الانكباء المتمقين والسطحيين الخرافيين .

وانتقلت الانوثة الى السيوف ! وفى صراعها مع السيف غلبته والبسته معنى اللين بدلا من ان يكسبها معنى الصلابة والمضاء . قالوا الانثى من السيوف والمناث والمناثاة والمؤنث : ما كان من حديد غير ذكر ! اى ما كانت حديدته لينة .. انثى !

الخنثى :

ان ابدال حرف الخاء بالهمزة قليل فى العربية لكنه موجود ، مثل : الاباش والخباش (بالتشديد) : الكاسب ، والتاود والتخود (بالتشديد) .. ومن ذلك ايضا : الانثى والخنثى .

وقد كانت الكلمتان مترادفتين أول أمرها بدليل
اطلاقتهم (الخنثى) على (الانثى) . ومن ذلك
أيضا قولهم خنثه تخنيثا بمعنى أنه تأنيثا ، ثم استعمالهم
التخنث بمعنى التثني والتكسر من الرجال والنساء ،
وهو شبيه بقولهم تأنث تأنثا : صار أنثى ، أو لان
وتساهل . ثم بولغ في معنى اللين والتساهل حتى
انتهى الى الضعف حيث قالوا تخنث المرء (رجلا أو
امراة) : سقط من الضعف .

أما الخنث (كالخلاف) فهو بالعراقية : منسل
المرأة أو غيرها من انث الحيوان .

ويقول اللسان : « **واصل الاختنث : التكسر**
والأنثى ، ومنه سميت المرأة خنثى » . هنا أيضا يكون
الصيح العكس ، أي أن التثني والتكسر هما اللذان
نجما من الانثى والخنثى .

ثم اطلقت (الخنثى) على الانسان الذي له
أعضاء الرجل والمرأة معا .

الانسان :

ولا نرى كبير مفخرة للعرب في استعارة معانئ
التثني واللين والسهولة والخصب من الانثى للكثير في
الاشياء ، فان هذه الخلال يحسها ويستطيعها الرجل
من جميع الاقوام ، وانما يستاهل العرب التقدير لعمق
احساسهم بالمعنى (الانسانى) الكبير في العلاقة بين
(الاثنين) - الرجل والمرأة - واستيلادهم منها معانئ
الانس والايانس والناس .. والانسانية !

فالانثى احس العربى في وجدانه انها لم تكن
له مادة استمتاع منسلى وحسب ، بل هي كذلك
سكن والف ونصف متمم . فمن أجل هذا لما نشأت
لهم من (الانثى) صيغة (الانس) ظلموا عليها معنى
الطمأنينة والركون والاتجاذب وكل المعانئ المضادة
للوحشة * .

وظل المعنى يتطور حتى صار يدل على البهجة
والانشراح ، نجد ذلك باقيا في الدارجات .

وينطق بالعراقية (ونسة) - بالكسر . ويقولون
بالموصلية مثلا : كلوا معنا عالونس ، أي كلوا معنا
للانثاس (أي للانس والايانس) . لكن معنى السرور
والبهجة في (الانس) قديم عند العرب مع أنه اختلى
من هذه الصيغة في معاجمهم . دليل ذلك أنهم كانوا في
الجاهلية يسمون يوم الخميس (مؤانسا) - « لانهم
كانوا يميلون فيه الى الملاذ » - اللسان .

واذا كانت (الانثى) هي مصدر (الانس) بمعنى
الالفة والتمازج الروحى أول الامر فقد عم المعنى
فشمل الجنس الخشن أيضا باعتبار كل من القرينين
(انسا) للآخر ، فليست المرأة أقل (استثناسا) برجلها
منه بها ، فمن هنا أصبحت صيغة (الانسان) تشمل
الانثى ، حتى لقد ندر عندهم تأنيثها على (أنسانة) .

ولعل هذا مع ما تقدم من ملابسات وتأثيرات يؤيد
للقارئ تخطئنا للشاعر - الا اذا كان مازحا - في
قوله : وما سمي الانسان الانسيه .

ومن الانسان طبعنا نشأت (الانسانية) بمعانئها
الجليلة . لكنهم كثيرا ما يصفونها بالمعذبة ، مع الاسف ،
ولعلها اصدق اوصانها ، ولا سيما انها هي المعذبة
لنفسها .

والانسان نطقه بعضهم (الايسان) ليقول قائلهم :
ما رأيت ثم ايساننا . وهم يجمعونه على اياسين . لفة
طىء .

ونطق نون الانسان ياءا عند بعضهم يذكرونا بنطق
سين الناس تاءا عند آخرين ، في قول شاعرهم :

يا قبح الله بنى السملاة
عمرو بن يربوع شرار النات
ليسوا بأخيار ولا أكيات !

لكن هؤلاء لا ينطقون السين تاءا في (الناس)
وحدها بل في كل اللفاظ المماثلة كما نرى في الاكيات ،
أي الاكياس (من الكياسة) .

* المعجم العربى يعرف الانس بأنه خلاف الوحشة ، ويعرف الوحشة بأنها خلاف الانس !

وقالوا كذلك ان « النوايس (كالصراف) : الناس
يكون من الانس والجن ، جمع انس ، اصله آانس ،
جمع عزيز اخذل عليه آل » - اللسان .

اما الجمع الانثوى فله عديد من الصيغ : النسوة
(بالفتح او الكسر) والنساء والنسوان (بالضم او
الكسر) والنسون (كالمثون) والنسنين (كالفلسين) ،
وكلها جموع (المرأة) التى لا جمع لها من لفظها .

من معنى (الانس) بالضم ، ايضا سميت النار :
مانوسة ومانوسة والانيسة . اللسان : « ويسمونها
السكن (بالتحريك) لان الانسان اذا آانسها (اى
ابصرها) ليلا انس بها وسكن اليها وزالت عنه الوحشة
وان كان بالأرض القفر » . وهذا عين الصواب ، لان
الابصار قد جاء اولاً من هذا السكن - الذى هو ايضا
من اسماء النار - وزوال الوحشة عند رؤية النار ليلا
لانها كانت للمسافر والمنقطع بشيراً بالوصول الى
ناس من البشر يؤنس بهم ويلتجأ اليهم ويوجد لديهم
على الاغلب زاد وقرى ، ولا سيما ان اجاويد العرب
كانوا يوقدون النار فى الليل على رؤوس الاكام والمشارف
لاستجلاب الضيفان من جائع وتائه وملهوف .

و (السكن) بالتحريك : « ما يسكن اليه وفيه
ويستانس به ، والرحمة ، والبركة » . فاذا هم اطلقوا
هذا (السكن) المبارك على النار كما تقدم فلا عجب
ان يطلقوا عليها كذلك (المانوسة) بمعنى المانوس بها
و (الانيسة) وهى من صيغ المفعولية ايضا . ثم هم
لكثرة ذكرهم اياها وحبهم لها وعرفانهم لفضلها استعملوا
عنها اداة التعريف اكباراً واحتفالاً فدعواها (مانوسة) .

وصاروا يقولون (آنست نارا) بمعنى آنست
بها ، ثم بمعنى أحبست بوجودها وتوقعت رؤيتها ،
مثلما تقول آنست فيه مخايل النبيل والشرف اى توسمتها
فيه او شمتها منه . ثم انتقل معنى (آنست نارا) الى
الرؤية .

من معنى التوقع الذى نخمنه ظهر قولهم
« استانس : استعلم » (اى بحث عن المتوقع من
الامر اولاً ، ثم بمعنى سأل ليعلم ما لا يعلم) .

وتياسا على معنى الإبصار قالوا « آنس صوتا :
سمعه » .

وقالوا « جارية آنسة : طيبة الحديث » .
المتأخرون صاروا يطلقون (الانسة) على العذراء ،
او بعبارة ادق على الانثى البشرية التى لم تتزوج . ولم
يلتفتوا الى ان هذا المعنى اذا تورن بالمعنى القديم
صار المفهوم منهما ان الانثى اذا تزوجت خبت حديثها .
ان النكات تكثر عن ثرثرة الزوجات لا عن خبت حديثهن .

اما الليث فيقول : « جارية آنسة : اذا كانت
طيبة النفس (كالنعم) تحب قريبك وحديثك » - وهذا
يجعل نتيجة المقارنة أوجع ، لان هذا الاستعمال
الحديث يحرم المتزوجة من هذه السمات الحلو . ومن
راى ان على الأزواج ان يقدموا احتجاجاً على ذلك ،
ان كانوا غير موافقين عليه .

ومن (الانسة) نشأت صيغة (العانس) .
واختصت بالمرأة التى تبقى زماناً غير متزوجة ، بعد
البلوغ . (وقد تطلق على الرجل) ، ومن هناك
صيغ الفعل عانسها أهلها تعنيساً : حبسوها عن
الزواج حتى جاوزت فتاء السن ولما تعجز .

وللكلمة معان أخرى نكتفى منها بهذا الذى ذكرنا
لفضح تحيز التطور ومجافاته النصفية بين لفظتين
مشتقتين من مادة واحدة فيحلبى هذه (الانسة) ويجوز
على الأخرى (العانس) .

و (الانس) بالكسر : « البشر ، غير الملائكة
والجن » ويمكننا أن نضيف : وغير الشياطين . بالمراتية
يقولون : « لا آنس ولا جنس » تعبيراً عن خلو المكان
من كل ذى حياة . اى انهم ينطقون الجن (جنسي)
اتباعاً .

و (الانس) بالتحريك ، معنى : الجماعة الكثرة .
ومن الغريب أن الخنثى (كالشرس) ايضا تعنى شيئاً
قريباً من ذلك اى : الجماعة المتفرقة ، مما يؤيد الصلة
بين مادة الانثى والخنثى والانس (اى الناس) .

وجمع الانس : آانس (زنة آمال) . ولا بد أن
هذا أو شبهه قد كان أثل (الناس) . ويقول المعجبون
ان (الناس) : جمع (الانسان) ، ولسنا متأكدين من
صحة ذلك لان لدينا بمعنى جماعة البشر : (الاتانس)
ايضا . وهى تشبه صيغة الانثى (كالحبالى) التى مرت
بنا قبل ، جمع الانثى .

الانكليزية لا الفرنسية ، أي (اكس) ومنها (Ignition) استعمال .

النسناس :

اشتقوا من (الناس) صيغة (النسناس) :
« خلق في صورة الناس مشتق منه لضعف خلقتهم (ا)
قال كراع : النسناس (بالفتح) والنسناس (بالكسر)
فيما يقال دابة في عداد الوحش تصاد وتؤكل وهي على
شكل الانسان ، بعين واحدة ورجل ويد تتكلم مثل
الانسان (ا) . . التهذيب : النسناس والنسناس
(بالفتح والكسر) : خلق على صورة بنى آدم أشبهوهم
في شيء وخالفوهم في شيء ، وليسوا من بنى آدم ، وقيل
هم من بنى آدم . . »

* * *

في دارجات ديار الشام يطلقون (النسناس) على
القرد . ونحسب ان هذا هو اصل المعنى لما بين القرد
و (الناس) الذين اشتق اسمه (النسناس) من اسمهم
من شبه صراح . وما اكثر ما قيل في الحكايات والاساطير
ان القرد كان انسانا ثم مسخه الله لانه اقترف كذا
وكذا من سوء أو معصية ثم أمعنت الحكايات في الخيال
فجعلت له رجلا واحدة وعينا واحدة على نحو ما رواه
اللسان وغيره .

لا غرابة اذن في اشتقاق النسناس من (الناس)
التي اشتقوا منها كذلك ما هو ارفع من النسناس
تدرا ، نعى النسنين (بالكسر) : النساء ، معذرة .

وليكن ذكر النساء هنا — بعد النسناس — من
باب « ختامها مسك » .

عبد الحق فاضل

أما قولهم « تأنس : ضد توحش ، وبمعنى صار
انسانا » فنأشئ من استعمالهم الانسان بمعنى من
ليس حيوانا . لكن الكلمة ملتبسة المعنى ، فاذا نحن
قرانا (التأنس) أو سمعناها وحدها بدون قرينة لا تفهم
منها معنى كلمة (التأنس) التي صارت تستعمل حديثا
بمعنى : صار انسانا — خلافا للقاعدة التي تسقط
النون الثانية من (الانسان) في مثل هذا الموطن
— باعتبارها حرفا زائدا .

في اللاتينية (ignis) تعنى النار . وهي تربية
جدا من اسمها العربى (انيسة) اذا نطقت على طريقة
أهلها اللاتين : (انيس) — زنة اجلس . وما زال
الحرف (g) في الايطالية والفرنسية أيضا ، اذا جاء
قبل النون في كلمة ، يلغظ ياءا بعد النون ، اى بتغيير
نطق وابدال مكان ، مثل (مانيتكو — magnetico)
بالاولى و (مانيتيك — magnetique)
بالثانية : مغناطيسى .

ويقتضينا الانصاف ورد الحقوق الى اهلها ان
نقول ان ملاحظة هذا الشبه بين الكلمتين (انيسة)
و (انيس — ignis) في العربية واللاتينية قد سبقنا
اليها الاب انستاس الكرملى . غير انه لم يقل الى اية
من اللغتين تنتمى الكلمة اثلا ، اى انه لم يقرر هل هي
اللاتينية التي اقتبستها جاهزة من العربية ام ان العربية
هي التي اقتبستها بمعنى النار من اللاتينية ثم
اشتقت منها معانى الابصار والسكن
والالفة وغيرها . والسبب هو انه لم يلتفت الى تحليل
تطورات تسميتها في العربية .

نضيف الى ما تقدم ان (Ignis) ترد في الانكليزية
اسم علم نسائى على الاغلب ، وتنطق على الطريقة

القياس اللغوي

(وأهميته في تطوير اللغة)

الأستاذ شاكِر طوفان العيساوي

بكالوريوس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية
من كلية الفقه - العراق - النجف الأشرف

مقدمة البحث :

التعبير عنها باللغة ، ولولا هذا التعبير لباعد بينهما حاجز لا يزيله استعمال الاشارات المبهمة والاصوات الخرساء ، ولذلك نجد ان المرء اذا عاش بين قوم لا يحسن لغتهم تعاطف شعوره بالغرابة والوحدة ، وانه متى ما وجد من يتكلم بلسانه سعى اليه سعى المشتاق والفه بكل يسر .

وللغة ارتباط وثيق بحضارة المجتمع ، فاذا اتسعت حضارة امة من الامم وازدهرت وكثرت حاجاتها وتعددت مرافق حياتها نهضت لغتها فتكسر مفرداتها ويتغير تركيبها في سبيل التعبير عن المسيمات والافكار الجديدة التي احدثها التمدن والتحضّر ، اما اذا تخلفت الامة حضاريا واستكانت لجهل يخيم عليها فان لغتها ستكون

من المشاكل التي تواجه اللغة العربية اليوم مشكلة تطورها ومسايرتها لركب الحضارة ، لان اللغة - كما اثبت علم اللغة الحديث وعلماء الاجتماع عند دراستهم للظواهر الاجتماعية - ظاهرة اجتماعية مكتسبة كبقية الظواهر تتأثر بالمجتمع وتطوراته وتواكبه في سيره المختلف الاتجاهات . فاللغة والمجتمع متفاعلان لا ينفكان عن التفاعل أبدا ، ومن الخطأ أن نعتبر اللغة كائنا مثاليا يسير في تطوره مستقلا عن بنى الانسان متجها نحو غاياته الخاصة (1) . فهي قبل كل شيء أداة للتفاهم الذي بدونه يصعب تكوين المجتمعات لان الافكار التي تملأ ذهن الفرد والمواطن التي تجيش في صدره ما كانت لتصل الى فرد آخر وتؤثر فيه وتدعوه الى التألف لولا

(1) اللغة : ج . فندرس ترجمة عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص ص 3 .

والطريق الوسط بين هذين الطرفين هو ما يبقى على اللغة شعارها ويبسط في نطاقها بمقدار ما يتسوغه الذوق العربي وتقتضيه العلوم على اتساع دائرتها والمدنية على اختلاف اطوارها وتجدد مرافقتها .

والحاجة الى القياس في اللغة ضرورة لان اللغة وضعت ليعبر بها الانسان عما يبدو له من المآرب ويتردد في نفسه من المعانى ، ومن البين جليا ان المعانى تبلغ من الكثرة ان تضيق عليها دائرة الحصر وتنتهى دونها ارقام الحاسبين ، فلم يكن من حكمة الواضع سوى ان وضع لكثير من المعانى الفاظا عينها كالسماء والمطر والنبات والعلم والعقل ، وتوسل للدلالة على يقينها بمقاييس قلدها ، والكلم التي تصاغ على مثال هذه المقاييس معدودة في جملة ما هو عربى فصيح .

ولولا هذه المقاييس لضاعت اللغة على الناطق بها فيقع في نقيصة العمى والعمهات ويكثر من الاشارات التي تخرج به عن حسن السميت والرزانة ويرتكب التشابيه محاولا بها اعادة المعنى لا كما يستعملها اليوم حلية للمنطق ومظهرا من مظاهر البلاغة .

فالقياس على هذا الاساس طريق يسهل به القيام على اللغة ووسيلة تمكن الانسان من النطق بالآف من الكلم والجلل دون ان تترع سمعه من قبل ، ويحتاج في الوثوق من صحة عربيتها الى مطالعة كتب اللغة او الدواوين الجامعة لمنثور العرب ومنظومها .

ورب قائل يقول : ان في اللغة العربية الفاظا مترادفة بالفة في الكثرة اذ يكون للمعنى الواحد عشرات او مئات من الاسماء وأود لو صرف الواضع هذه المترادفات الى جانب من المعانى التي تركها لحكم القياس .

وجواب هذا : ان للمترادفات في بلاغة القول ورسانة تأليف الكلم واقامة وزن الشعر وتمكين القافية فضلا لا يغنى غيرها غناءها فهي من مفاخر اللغة ودلائل سعة بيانها ، فالمترادفات تسد وجوها من الحاجة غير الوجوه التي يسدها القياس ، ولا ننس ان الكثير من

رفيقة لذلك التأخر والتخلف فتراها ركيكة التركيب قليلة المفردات غير محددة المعانى ان لم نقل انها عقيمتها . واللغة مرآة المجتمع لانها ليست الفاظا فحسب بل هي آداب وعادات واعراف وتقاليد وطرق تفكير ولون من ألوان الشعور علاوة على كونها وسيلة من وسائل التعبير ، ولذلك تعتبر اللغة اصدق سجل لتاريخ الامم والشعوب اذا ما احسن تتبع مراحل تطورها ودرس خصائص كل مرحلة منها .

وسائل انفاض اللغة وتطويرها كثيرة :
اخصها (أ) الوضع اشتقاقا وتجوزا وارتجالا (ب) اطلاق القياس ليشمل ما قيس من قبل وما لم يقس (ج) تحرير السماع من قيود الزمان والمكان ليشمل ما سمع اليوم من طوائف المجتمع كالحدايين والنجارين والبنائين (د) التسليم بالتمريب (هـ) الاعتداد بالالفاظ المولدة ومساواتها بالالفاظ الماثورة (2) .

ومع هذه الوسائل اخترت القياس ليكون موضوع هذا البحث اعنى القياس اللغوى لا القياس النحوى المصنوع الذي يتحدثون عنه بقولهم : اعرب المضارع قياسا على الاسم .. الخ . وقولهم : نصبت لا النامية للجنس الاسم ورفعت الخبر قياسا على ان لمشايتها اياها في التوكيد .. الى غير ذلك من امور ليست الا صناعة نحوية لا تمت الى القياس اللغوى بصلة لانها من علل النحاة المخترعة والتي ادعوا ان العرب راعوها في التفرقة بين الاساليب وكانها كان كل العرب الاقمن علماء في النحو يدركون علله وحيله كما ادركها اصحاب النحو من المتأخرين .

وقد فصلت القول في انواع القياس في الفصل الاول من هذا البحث . وهذا الموضوع تشعبت فيه انظار الباحثين في العربية فبعد اتفاتهم على العمل بالقياس وتضامر عباراتهم على انه من مأخذ اللغة يغلو بعضهم في التعلق به ويجرى فيه بغير عنان ولا يجد في نفسه حرجا من ان يفقد الكلام صبغته العربية . ووقف آخرون عند حد يقرب من موقف الجامد على الرواية في اوضاع الكلام ووجوه تاليها (3) .

(2) وهذه الوسائل اقرها مجمع اللغة العربية في القاهرة .

(3) من أسرار اللغة : ابراهيم انيس ص 15 وما بعدها .

الفصل الاول ويشتمل على :

ا - تعريف القياس لغة واصطلاحا .

ب - أنواع القياس والقياس المبحوث هنا عنه هو المسمى بالقياس الطبيعي على رأى وبالقياس الاصلى على رأى آخر .

الفصل الثانى ويشتمل على :

القياس الاصلى وما يقاس عليه ويتفرع الى :

ا - القرآن الكريم .

ب - الحديث الشريف

ج - كلام العرب

د - القياس على الشاذ

هـ - القياس على ما لا بد من تأويله بخلاف الظاهر .

و - القياس فى صبغ الكلم واشتقاقها ، وخصصنا النظر على القياس فى المصادر .

الفصل الثالث : القياس ومجمع اللغة العربية :

وقد قدمت هذه الفصول بتمهيد عنوانه (لمحة تاريخية عن القياس فى اللغة) . وهو عبارة عن موقف القدماء من القياس وابدائه بقياس أبى على الفارسى وتلميذه ابن جنى وهما رأس مدرسة القياس .

أما موقف المحدثين فقد تكلمنا عنه بالتفصيل فى الفصل الثالث (القياس ومجمع اللغة العربية) وذكرنا فيه أن أول من نادى بضرورة تطوير اللغة عن طريق وضع مصطلحات عربية للمستحدثات الجديدة أو عن طريق الاشتقاق والمجاز والقياس ، والتعريب والتوليد - المجمع العلمى العربى بدمشق الذى تأسس سنة

هذه المترادفات تد نشأ من تعدد اللغات عند القبائل أو من ملاحظة اختلاف دقيق فى الاحوال والصفات .

وحين رجعت أبحاث فى فهارس الكتب لعلى أرى منفذا أدخل فيه لاهل على البحث ، وفى حدود تتبمى لكتب اللغة واستماتى ببعض الفهارس لم أجد فى كتب القدماء من بحث فى هذا الموضوع بحثا مفصلا ومتبما منها ، فسيبويه فى كتابه يذكر أنماطا كثيرة من اتبسته وأتميسة استأذه الخليل بمعمرة فى ابواب شتى ، وكذلك أبى جنى فى كتابه الخصائص ولكنه لم يختلف عنه فى أنه أمرد بابا فى بحث القياس فى اللغة فى الجزء الأول عنوانه (باب فى اللغة تؤخذ قياسا) .

وعلى هذا النهج سار السيوطى فى كتابه (المزهرة فى علوم اللغة) ، فهو لم يفرده بابا ولم ينهج منها بل يذكر أتميسة للكلمات ، أما فى كتابه « الاقتراح » فهو يبحث فى أصول النحو فصل القول فيه عن القياس النحوى ولم يتطرق الى القياس اللغوى الا فى بعض الامثلة .

قد يتبادر الى الذهن من هذا أن القدماء لم يبحثوا فى القياس . ويمكن رده : أن هذا هو منهج القدماء فى تأليفهم .

أما فى كتب المحدثين فلم أجد من كتب فى الموضوع الا فى عدد من الكتب لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، وحتى هؤلاء منهم من كتب فى القياس اللغوى وخصه بمجموع التكسير . (4) ومنهم من بحث فيه بحثا عاما ولم ينهج منها خاصة (5) . ومنهم من خلط بين القياس النحوى والقياس اللغوى (6) .

ومن هنا رأيت أن للموضوع أهمية كبرى من حيث كونه ينشد تطوير اللغة بالاضافة الى أنه نتاج جديد . ويعد جمع المعلومات قسمته الى ثلاثة فصول :

(4) كالاستاذ أحمد الاسكندرى فى بحثه الذى تقدم به الى مجمع اللغة العربية بعنوان (جموع التكسير القياسية) .

(5) كالاستاذ أحمد أمين فى بحثه (مدرسة القياس فى اللغة) .

(6) كالاستاذ سعيد الامغنى فى كتابه (فى أصول النحو) .

وكان هذا الجمع هو المادة الخام للنفوسيين والنحويين ، فأما النحويون والصرفيون فقد برعوا في القياس الى اقصى حد ، فكل علمهم قياس . نظروا الى الاعم الاغلب فجعلوه قاعدة وجعلوا ما جاء على خلافها شاذا لا يصح لنا الاتيان بمثله ، فالمعرب لم يلتزم مثلا نصب اسم ان ولا رفع خبرها ولا عطف المرفوع على المرفوع والمنصوب على المنصوب وهكذا ، بل ورد في القرآن رفع اسم ان في قوله تعالى : « ان هذان لساحران » (7) . وجاء فيه : « والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة » (8) . وقوله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصائبين والنصارى » (9) . فتعدوا قواعدهم على الكثير الغالب . وكذلك الصرفيون في قواعد الاعلال والابدال واشتقاق صيغ اسم الفاعل والمفعول والزمان والمكان ..

فغلبوا بذلك اللغة في اختصاصهم ، وكل هذا عن طريق القياس ، أما اللغويون فسادت عليهم المحافظة . ولت فيهم الحرية ، وليس الاختلاف في أن اللغة توقيفية أو غير توقيفية الا مظهرا من مظاهر المحافظة والحرية ، فمن قال بانها توقيفية أو بعبارة أخرى من وضع الله اصبح عليها حلة من التقديس والتزمها من غير تصرف بها . ومن قال أنها غير توقيفية أو بعبارة أخرى من وضع البشر كان أكثر حرية في التصرف فيها .

فباللغويون كثيرا وقفوا عند ما ورد وكاتبوا محافظين ، ومن هؤلاء جامعو اللغة كالاصمى وابن الاعرابى وابى زيد ، فلم يكونوا يستبيحون لانفسهم ان يقولوا كلمة أو يشتقوا اشتقاقا الا عن سماع . ومن هؤلاء أيضا اصحاب المعاجم كالجوهري والفيروزابادى وابن منظور ، فلم يقيسوا على ما رواه ، وان اختلف بعضهم عن بعض في زيادة الكمية المروية أو نقصها ، وكثرة الاستشهاد وقتله ، وفكر اساء البلاد والاعلام أو عدمه ونحو ذلك .

وبجانب ذلك قلة من القياسيين أو بعبارة أخرى مدرسة القياس وهم اصحاب مذهب (ما تيسر على كلام العرب فهو من كلام العرب ، الا ترى انك لم تسرع

(1918) واستمر بجمع دمشق هذا النشاط ستة عشر عاما ثم ظهر مجمع فؤاد الى الوجود وبدأ عمله سنة (1934) واصدر مجلة باسم (مجلة مجمع اللغة العربية) بعد تغيير اسم المجمع الى هذا الاسم . وتضم المجلة بين طياتها البحوث والمحاضرات التى يلقيها الاعضاء العاملون بالاضافة الى المصطلحات الجديدة التى يقرها المجمع في كل دورة يعقدها ، وقد ادرجنا القرارات التى اقرها المجمع في هذا الشأن ثم نبذة مختصرة عن البحوث التى تقدم بها الاعضاء العاملون في المجمع عن القياس وموقفهم منه ، وانهيينا البحث بخاتمة تنطوي على نتائج .

والحقيقة ان هذه لم تكن اول محاولة ولا ثانيها ندعيها لانفسنا وانما هى صوت يرتفع الى جانب تلك الاصوات التى نادى بضرورة تطوير لغة القرآن لتساير التطور الاجتماعى والحضارى وما يتطلبه من تجديد في اللغة وهذا ما اعتقده مسائرا لمنهج المكتب الدائم لتتسيق التعريب وما توفيقى الا بالله ومنه استمد العون .

شكر طوفان

10 ايلول سبتمبر 1972

(لمحة تاريخية عن القياس)

تمهيد للبحث :

بدأ العلماء يجمعون اللغة من افواه المعرب سواء في الفاظها أو أساليبها ، وقد بذلوا في ذلك جهدا مشكورا ، وتحملوا في ذلك من العذاب ما لا يستطيعه الا ذوو الهمم العالية ، وفضلوا ان يأخذوا عن العرب العرباء الذين لم تنسدهم الحضارة ولا الاختلاط وعدوا هذه القبائل اصح من تؤخذ عنهم اللغة هم قيس وتميم واسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يأخذوا عن غيرهم من سائر قبائلهم كما لم يأخذوا عن حضرى ولا عن سكان البرازى ممن كان يسكن اطراف بلادهم المجاورة لسائر الامم الذين حولهم :

(7) سورة طه 20 - 63 .

(8) سورة النساء 4 - 162 .

(9) سورة الحج 22 - 17 .

ما ورد ، فرأى العرب صاغت (فعلى) من الفعل
للدلالة على السرعة فقالوا :

جمزى لسرعة السير فقياس عليها فقال :

والآن أقصر عن سمية باطللى
وأشار بالوجللى على مشير
وقال :

على الغزلى منى السلام فربما
لهوت بها في ظل مخضلة زهر
نعابوه وقالوا : (لم يسمع من العرب وجللى

ولا غزلى) (13) .

وقع هذا وأمثاله في المئة الثانية للهجرة ، فأصبح
من الطبيعي نشوء أخذ ورد حول القياس بين المجيزين
والمانعين أو بين المجددين والمحافظين ، وأن ينتهى
هذا الجدل بنشوء مدرسة القياس ، لها رسومها
ونظمتها ، حاولت فرض سيطرتها حتى على أصحاب
اللغة فخطوا بعض الشعراء الجاهليين والاسلاميين
وحكموا على أبيات بالشذوذ لعدم انطباقها على
قواعدهم .

وكان من اعلام هذه المدرسة الخليل وتلميذه
سيبويه وأبو على الفارسي وتلميذه ابن جنى . وقد
عاصرت هذه المدرسة مدرسة اخرى في الفقه
تشابها ، هي مدرسة الراى ، ولا غرابة في ذلك فالتقوم
حينئذ كانوا مدفوعين بحكم الضرورة الى تأسيس
بنيانهم الفكرى تلبية لحاجات الحضارة اذ ذاك .

(من قياس الخليل وتلميذه سيبويه)

لم يكن الخليل اول القياسيين في اللغة ، بل سبقه
من شيوخه من ضرب في القياس بسهم ، ولكن الخليل
كان فيهم كما قال ابن جنى : (سيد تومه وكاشف
تناح القياس في علمه) (14) ويعتبر انه واضع اساس

انت ولا غيرك اسم كل فاعل ولا مفعول وانما سمعت
بعضها فقيست عليه غيره) (10) واليه يرجع الفضل
في حياة اللغة . الحياة النشيطة حتى ايامنا هذه ،
نقد حافظوا على روحها وتمهدوها بالغذاء فنمت
وبسقت وأظلت فروعها حضارات مختلفة . ومع
انتسابهم جميعا الى مذهب القياس يتفاوتون فيما
بينهم فيه توسيعا وتضييقا .

لم يكن أرباب القياس على بدع من الامر ،
فأصحاب اللغة انفسهم اتسعوا في طردها وتصريفها
واشتقاقها بما سبقوا به أرباب القياس انفسهم (فان
الاعرابى اذا قويت فصاحته وسمت طبيعته تصرف
وارتجل ما لم يسبقه اليه احد قبله) (11) .

هذا رؤيه وابوه العجاج الراجزان المشهوران
(انهما قاسا اللغة وتصرفا فيها وأقدا على ما لم يات
به من قبلهما) (12) وحكى أنهما كانا يرتجلان الفاظا
لم يسمعاها ولا سبقا اليها ، ومن يتصفح شعر
الراجزين يجد مصداق هذا القول .

فالنزعة الى تعميم القياس قديمة من ايام الخليل،
وكانت الى جانبها نزعة محافظة معتدلة يمثلها ابن
تتبية ، فقد ذهب في مقدمة كتابه (الشعر والشعراء)
الى انه ليس لتأخر الشعراء (ان يقىس على اشتقاقهم
فيطلق ما لم يطلقوا) واستشهد لذلك برأى الخليل ،
فقد ذكر أن الخليل بن احمد اتاه رجل فأنشده :

(ترافع العز بنا فارفنعما)

فقال الخليل : (ليس هذا شيئا) فقال الرجل :
كيف جاز للعجاج ان يقول :

(تقاعس العز بنا فاقعنسسا)

ولا يجوز لى ؟

ويروى عن بشار انه كان يقىس ما لم يرد على

- (10) الخصائص ، ابن جنى ج 1 ص 357 ، كلمة المازنى وأبى على الفارسي .
- (11) المصدر السابق ج 2 ص 25 .
- (12) الاقتراح - السيوطى ص 53 .
- (13) في اصول النحو - سعيد الأفغانى ص 82 .
- (14) الخصائص - ابن جنى ج 1 ص 361 .

(من قياس الفارسي)

أما أبو علي الفارسي فهو فارسي الاب عريسي الام . مات ببغداد سنة 377 هـ في أيام الطائع لله عن نيف وتسعين سنة . طوف كثيرا في بلاد الشام ، وأقام بحلب مدة وخدم سيف الدولة ابن حمدان ثم رجع الى بغداد وخدم عضد الدولة وبقي بها الى ان مات وقد كان معاصرا لابى سعيد السيرافي وكان أبو سعيد هذا اكثر من الفارسي رواية وكان الفارسي اكثر منه قياسا حتى لقد قال أبو علي الفارسي : (لان اخطيء نسي خمسين مسألة مما بابة الرواية أحب الى من ان اخطيء في مسألة واحدة قياسية) وقد قال فيه بعض تلاميذه : (أحسب ان ابا علي قد خطر له وانتزع من علل هذا العلم ثلث ما وقع لجميع اصحابنا) (16) . وما العلل الا مقدمة القياس .

وكان يقول : ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب فاذا اعربت لفظة اعجمية اجريت عليها احكام الاعراب وعددتها من كلام العرب واجيز الاشتقاق منها كما عرب العرب لفظة الدرهم واشتقوا منه درهمت الخبازي اى صارت كالدرهم وقالوا : رجل مدرهم اى كثرت دراهمه (17) .

وكان تلميذه ابن جنى يقرأ عليه كتابا للمازني ، فلما جاء ذكر قول أبي عثمان في اللاحق المطرد : (ان موضعه من جهة اللام نحو تعدد ومدد وشمل وصعور . وجعل اللاحق بغير اللام شاذا لا يقاس عليه مثل : جوهر وبيطر وجدول . الخ . قال أبو علي : (لو شاء شاعر أو ساجع أو متسع ان يبنى بالحاق اللام اسما أو فعلا أو صفة لجاز له ولكن ذلك من كلام العرب . وذلك نحو قولك : خرج اكرم من نخلك ، وضرب زيد عمرو ، ومررت برجل ضريب وكرم ونحو ذلك . فاعترضه تلميذه ابن جنى قائلا : افترجل اللغة ارتجالا ؟ قال : ليس بارتجال لكنه مقيس على كلامهم فهو اذن من كلامهم ثم قال : الا ترى انك تقول : طاب الخشكان . فتجعله من كلام العرب وان لم تكن العرب تكلمت به هكذا . قال فرفعت اياه

المعجم وله اول معجم الف في العربية وانه مبتكر العروض لقياس الشعر ، وعلى هذا الاساس لم تستكثر ان يكون لهذا الذهن تلك المرانة المولدة في اللغة والنحو بحيث يرجع اليه الفضل في اظهار معالم القياس ووضع رسومه ومناهجه .

ونجد في كتاب سيبويه وهو من املاء استاذه الخليل انما كثيرا من قياسه مبعثرة في ابواب شتى . وهذه انماط من صنيعه : نسبت العرب الى تهامة فقالت : تهامى على القياس وتهام على غير القياس كما قالت : « شامى » و « شام » . وجعلوا الف تهام بدلا من احدى ياءى النسب ، قال ابن جنى : (فان قلت ان في تهامة الفا فلم ذهبت الى ان الالف في تهام عوض من احدى اليامين ؟) فقد (قال الخليل في هذا : انهم كانوا نسبوه الى (فعل او فعل) وكانهم فكوا صيغة تهامة فاصاروها الى (تهام او تهيم) ثم اضافوا (اى نسبوا) فقالوا : تهام . وانما ميل الخليل بين (فعل او فعل) ولم يقطع بأحدهما لانه قد جاء هذا العمل في هذين المثالين جميعا وهو « الشام واليمن » . وهذا الترجيم الذى اشرف عليه الخليل ظنا قد جاء به السماع نصا :

انشدنا أبو علي قال : انشدنا احمد بن يحيى « ثعلب » :

ارقتى الليلة برق بالتهم

يا لك برقا من يشمه لا ينم

فانظر الى قوة تصور الخليل الى ان هجم به الظن على اليقين ، فهو المعنى بقوله :

(الالمسى الذى يظن بك الظن

من كان قد رأى وقد سمعا) (15)

استمر القياس على الطريق ، ذهب فيه الخليل وسيبويه حتى كانت المئة الرابعة للهجرة ، فبلغ ذروة مجده بأبى علي الفارسي وتلميذه ابن جنى ، ونهض به هذان الامان نهضة لم يخط احد بمثلها قبلهما ولا بعدهما حتى اليوم .

(15) الخصائص — ابن جنى ج 2 ص 111 .

(16) الخصائص — ابن جنى : ج 1 ص 208 و ج 2 ص 88 .

(17) نفس المصدر ج 1 ص 357 .

كرنعها ما صار لذلك محولا على كلامها ومنسوبا الى لفتها (18) .

وقد كان ابو على الفارسي جريئا الى حد لم نصل اليه الى اليوم فكان من رايه ان الالف اللينة في الكلمة الثلاثية تكتب الفا مطلقا سواء اكان اصلها واوا ام ياءا وقد علل ذلك بحمل الخط على اللفظ .

من هذا يتضح ان مدرسة القياس حظيت من ثمرات تفكيره بفيض عزيز . وحقا ما قال به ابن جنى فيه (والله هو ! وعليه رحمته فما كان اقوى قياسه واشد بهذا العلم اللطيف الشريف اتسه فكائه انما كان مخلوقا له . وكيف لا يكون كذلك وقد اقام على هذه الطريقة مع جلة اصحابها واعيان شيوخها سبعين سنة ، زائحة علله ، ساقطة عنه كلفه ، وجعله همه وسدسه ، لا يعتاقه عنه ولد ولا يعارضه في منحر ولا يسوم به مطلبا ولا يخدم به رئيسا الا باخرة وقد حظ من اثقاله والتى عصا ترحاله (19) .

(من قياس ابن جنى)

اما اذا وصلنا الى ابن جنى فقد تبوانا ذروة القياس وفلسفته ولقد كان اعلى علماء العربية كعبا في جميع عصورها واغوصهم عامة على اسرار العربية وانجحهم في الاهتداء الى النظريات العابة فيها . وكتابه الخصائص نحا فيه منحى جديدا طريفا يدل على تدوقه للغة وتعمقه في فهم اسرارها ومحاولة فلسفتها .

ويعتبر ابن جنى مبتدع نظرية الاشتقاق الكبير ومؤسس علم فقه اللغة ، اما التصريف فهو امامه دون منازع ، وقلما تقرا كتابا فيه ولا يكون ابن جنى مرجع كثير من مسائله . وكتابه « سر الصناعة » من خير ما حفظ الزمان من هذا التراث .

ولد بالموصل من اب رومى وتوفى ببغداد سنة

392 هـ في خلافة القادر . صحب استاذه الفارسي اربعين سنة وعاش مدة طويلة ببلاط سيف الدولة بخلب حيث املى المسائل الحلبية ، ونشأت هناك بينه وبين المتنبي صداقة اساسها اعجاب كل منهما بمواهب الآخر ، وكان من نتائج ذلك ان شرح ديوان المتنبي ودافع عنه هجمات النقاد ، وكان المتنبي يقول فيه : (هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس) ويقول : (ابن جنى اعرف بشعري منى) (20) .

ونحن نتعرف الى منهجه في القياس من كتابه (الخصائص) الذى يدور على الفصوص على اسرار اللغة الشاملة ويطرد القياس ما استطاع الى ذلك سبيلا ثم ان اثر الفارسي في تلميذه بارز في هذا الكتاب وان هذا التلميذ الذى لحن هذا المذهب عن استاذه قد مضى به بعيدا وتقدم الى الامام مسافات شاسعة وكان الحافز له على تأليفه هو انه راي الفقهاء وضعوا للغة اصولا والتكلمين وضعوا للعقائد اصولا فاراد ان يضع للغة والنحو كذلك اصولا ، فكان بذلك واضح علم جديد يقول فيه : (انه من اشرف ما صنف فيه من علم العرب واذبه في طريق القياس والنظر واجمه للدلالة على ما اودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة ونيطت به من علائق الاتقان والصنعة) .

وابن جنى كثير الانس بالتجربة اللغوية ، يقلبها على وجوهها المختلفة ويكثر التفكير فيها ثم يقابل بين اللغات التى يعرفها ليكون حكمه الشامل فى اللغة العربية حين يرد الى طبيعة الحس صحيحا الى حد بعيد ، والظاهر انه يعرف الفارسية ، فقد عرض لها فى حديثه عن اجتماع الساكنين فقال : (ومن طريف حديث اجتماع السواكن شئ وان كان فى لغة العجم فان طريق الحس موضع تتلاقى عليه طبائع البشر ويتحاكم اليه الاسود والاحمر . وذلك قولهم (ارد) للدقيق و (ماست) للين فيجمعون بين ثلاثة سواكن الا اننى لم ار ذلك الا فيما كان ساكنه الاول الفا وذلك ان الالف لما قاربت بضعفها وخفائها الحركة صارت (ماست) كأنها (مست) (21) .

- (18) الخصائص — ابن جنى ج 1 ص 358 .
- (19) الخصائص ج 1 ص 276 .
- (20) معجم الادباء — ياقوت ج 12 ص 89 .
- (21) الخصائص — ج 1 ص 90 .

وتد هذا حذو استاذة الفارسي في تعميم القياس وتوسيع طرق الاشتقاق ، وكان يقول : (مسألة واحدة من القياس انبل وأتبه من كتاب لفة عند عيون الناس) (22) .

ومن أقيسته عند ما تعرض للأبدال وذكر لغات (فسطاط ، فستاط ، فساط) وان الجمع فيها (فساطيط ، وفساسيط) فقط وذهابهم الى أن التاء في فستاط بدل من السين أو الطاء ورجحها بدل السين بقوله : (اذا حكمت بأنها بدل من سين (فساط) ففيه شيان جيدان : أحدهما تغيير ثانی المثلين وهو أقيس من تغيير الاول من المثلين لان الاستكراه في الثاني يكون لا في الاول والآخر ان السينين في (فساط) ملتقيتان والطاعين من (فسطاط) منفصلتان بالف بينهما واستقلال المثلين ملتقيين أخرى من استتقالهما متفرقتين فعلى هذا الاعتبار ينبغي أن يلتقى ما يرد من حديث الإبدال) (23) .

وتد أراد ان يشرح كتاب يعقوب بن السكيت في (القلب والابدال) على هذا النمط المنهجي لان معرفة هذه الحال فيه أمثل من معرفة عشرة أمثال لغته) (24) . كما قال :

وابن جنى لم يتخذ القياس مذهباً لنفسه فحسب بل كان يغرى به ويدعو اليه ويحض عليه ويبيح فيه الارتجال فيقول : (لإنسان أن يرتجل من المذاهب ما يدعو اليه القياس ما لم يلو بنص أو ينتهك حرمة شرع) (25) حتى اذا أراك القياس الى ما لم تنطق به العرب قط ، فليس لك أن ترمى به بل تعده (لشاعر مولد أو لساجع أو لضرورة ، لانه قياس على كلامهم) (26) .

وهذه الكلمة تدل دلالة واضحة على مدى اهتمام ابن جنى بالقياس وقبل ان نختم الكلام عن ابن جنى لا بد أن نقول كلمة عن الاشتقاق وهو من منجزات القياس وهو باب عظيم من أبواب فقه اللغة ابتدعه

ابن جنى وكان له فضل كبير فيما سمي بالاشتقاق الكبير وهو الذي سماه بهذا الاسم ، وكان قد تنبه اليه استاذة ابو على الفارسي . قال ابن جنى : (ان ابا على رحمه الله كان يستعين به ويخلد اليه ، لكنه مع ذلك لم يسمه ، وانما كان يعتاده عند الضرورة ويستروح اليه) . فجا ابن جنى فوسعه ونهاه وسماه وسمى الاشتقاق المعروف في ايدى الناس بالاشتقاق الصغير كان يشتق من كتب : يكتب واكتب وكتابت ومكتوب ومكتب وكتاب . الخ . اما الاشتقاق الكبير فيعنون به حصر اصول الكلمة وتقليبها على وجوهها المختلفة وان تستخرج منها التباديل والتوافيق وتقرن بينها ، كان تأخذ كلمة « كلم » وتحولها الى : ك م ل م ك ل ، م ل ك ، ل ك م ، ل م ك وتمعن النظر فيها لتتظفر هل هذه الحروف اذا اجتمعت كلها على نحو ما دلت على شيء واحد يتنوع بتنوع تركيب هذه الحروف : فتستخرج مثلا ان هذه الحروف الثلاثة اذا اجتمعت دلت على القوة وتستخرج معنى القوة من كل ما دلت عليه في اشكالها المختلفة ، وهذا باب عظيم من ابواب اصول اللغة تفوق فيه ابن جنى .

هذا ، واذا تصفحنا كتابا من كتب الطبقات في النحو واللغة ومررنا بمئات من تراجم النحويين واللغويين ، استطعنا بعد امعان قليل ان نلم بما كان للقياس من خطر عند القوم حتى ليتفرد واحد في المئة فيعرف به ، فاذا ترجموا له نصوا على امتيازه هذا ، وتلك ملكة لم تتوفر كاملة الا لاعلام قليلين جدا .

(الفصل الاول)

1 - تعريف القياس لفة واصطلاحا :

1 - المعنى اللغوي :

(قياس) قاس الشيء بقيسه قياسا وقياسا واقتاسه وقيسه اذا قدره على مثاله .

(22) الخصائص - ج 1 ص 88 .

(23) نفس المصدر - ج 2 ص 87 - 88 .

(24) نفس المصدر - ج 1 ص 88 .

(25) نفس المصدر ج 1 ص 189 .

(26) نفس المصدر - ج 1 ص 126 .

فهن بالأيدي بقيساته
مقدرات ومخيطاته (27)

2 - المعنى الاصطلاحي :

أما في الاصطلاح فلم نجد من عرف القياس اللغوي تعريفا كاملا لان الذين بحثوا في هذا الموضوع خلطوا بين تعريف القياس اللغوي وتعريف القياس النحوي ومن هذا الخلط في التعاريف فضلنا تعريف ابن الانباري بعد ان حذفنا منه بعض الالفاظ التي تجعل منه حدا للقياس النحوي الذي ذكره في جدله وهو : (حمل غير المنقول على المنقول اذا كان نسي معناه) (28)

وقد اختار هذا التعريف من المحدثين الاستاذ احمد الاسكندري فقد عرف القياس اللغوي بأنه (حمل كلمة على نظيرها في حكم) (29) واختاره من المحدثين ايضا الدكتور ابراهيم أنيس (30) واليه ذهب الدكتور مهدي المخزومي فبعد ان شن حملة على الذين تمسكوا بالاستنتاج العقلي والتعليل والتقدير والتأويل في اللغة والنحو ذكر ان القياس الذي يجب ان يتبع في دراسة اللغة والنحو هو القياس القائم على اساس حمل مجهول على معلوم وحمل ما لم يسمع على ما سمع وحمل ما يجد من تعبير على ما اخترنته الذاكرة وحفظته ووعته من تعبيرات وأساليب كانت قد عرفت او سمعت ، وذكر ايضا ان هذا القياس هو الطريق الطبيعي لنمو مادة اللغة واتساعها (30) مكرر .

ب - أنواع القياس والقياس المراد بحثه :

تجرى كلمة القياس عند البحث في معاني الالفاظ العربية واحكامها فتجد على اربعة وجوه :

أحدها : حمل العرب لبعض الكلمات على أخرى واعطاؤها حكما لوجه يجمع بينهما كما يقال : اعرب الفعل المضارع قياسا على الاسم لمشابهته به في

احتماله لمان لا يتبين المراد منها الا بالاعراب . والى هذا اشار الزمخشري في بعض مقاماته بقوله (ضارع الإبرار يعمل التواب الاواب ، فالفعل لمضارعه الاسم فاز بالاعراب) .

وكما يقال : دخلت الفاء خير الموصول فنحو قولهم : (من ياتيني فله درهم) قياسا للموصول على الشرط لمشابهته اياه في افادة العموم .

وكما يقال : نصبت لا النافية للجنس الاسم ورفعت الخبر قياسا على ان لمشابهتها اياها في التوكيد ، فان لا تأتي لتأكيد النفي كما تأتي ان لتوكيد الاثبات .

والقياس بهذا المعنى واقع من العرب انفسهم ويذكره النحاة تنبيها على غلة الحكم الثابت عنهم بالنقل الصحيح (31) .

وقد تقدم التعقيب على هذا النوع من انواع القياس وانه من عمل النحاة انفسهم ، وليس هذا الضرب من القياس داخلا في موضوعنا .

ثانيها : ان تعمد الى اسم وضع لمعنى يشتمل على وصف يدور معه الاسم وجودا وعدما ، فتعمدى هذا الاسم الى معنى آخر تحقق في ذلك الوصف وتجعل هذا المعنى من مدلولات ذلك الاسم لفة ، ومثال هذا اسم الخمر عند من يراه موضوعا للمعتصر من العنب خاصة ، وما وضع للمعتصر من العنب الا لوصف هو مخمرته للعقل وستره ، فاذا وجد عصير من غير العنب يشارك المعتصر من العنب في الشدة المضربة المخمرة للعقل . فان من يقول بصحة هذا القياس يجعل هذا العصير من أفراد الخمر ويسميه خمرا تسمية حقيقية لغوية .

وهذا الضرب من القياس هو الذي ينظر اليه علماء أصول الفقه عند ما يتعرضون لمسألة (القياس نسي الشرعية) .

(27) لسان العرب - مادة (قيس) .

(28) الاقتراح - للسيوطي ص 38 .

(29) مجلة مجمع اللغة العربية ج 4 ص 174 .

(30) من أسرار اللغة - ابراهيم أنيس ص 16 .

(30) (مكرر) في النحو العربي ، نقد وتوجيه للدكتور مهدي المخزومي ص 20 .

(31) دراسات في العربية وتاريخها ص 27 .

تخرج عن اختلاف الكلمات ببعض حروفها أو حال من أحوالها كالحركة والسكون أو الاعراب والبناء أو الفك والادغام أو التصحيح والتعليل أو الإمالة والتفخيم أو ترتيب الحروف أو المد والقصر أو الإتمام والنقص أو الأعمال والاهمال أو التذكير والتأنيث ، وقد يكون الاختلاف في بعض الالفاظ من حيث وضعها في لغة المعنى ووضعها لمعنى آخر في لغة أخرى وهذا ما يطلق عليه بالاشتراك اللفظي أو من حيث استعمال لفظ في لغة المعنى واستعمال لفظ آخر في لغة غيرها لذلك المعنى وهذا ما اصطلح عليه بالترادف . والترادف والاشتراك ميزتان من مميزات اللغة العربية .

وقد تختلف هذه اللغات في بعض وجوه النظم كتقديم عامل « كم » الخيرية عليها فانه يقدم في لغة ولا يقدم في أخرى .

تفاوتت هذه اللغات بالجودة وفصاحة اللهجة وجميعها مما يصح القياس عليه ، قال ابن جنى في الخصائص : (اللغات على اختلافها كلها حجة ، والناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطيء) (33) وقال أبو حيان في شرح التسهيل : (كل ما كان لغة لقبيلة صح القياس عليه) .

وبعد هذه المقدمة نأخذ الاصول التي ذكرها السيوطي واحدة بعد الاخرى بشيء من التفصيل .

١ - القرآن الكريم :

لم يتوفر لنص ما توفر للقرآن الكريم من تواتر رواياته وعناية العلماء بضبطها وتحريها متنا وسندا وتدوينا ، وضبطها بالمشاهدة عن افواه العلماء الاثبات الفصحاء الابناء من التابعين عن الصحابة عن رسول الله (ص) فهو النص العربي الصحيح المتواتر المجمع على تلاوته بالطرق التي وصل الينا بها في الاداء والحركات والسكنات ، ولم تعتن امة بنص كما اعتنى المسلمون بنص قرآنهم .

فالقرآن لا شك هو النص الصحيح المجمع على الاحتجاج به في اللغة والنحو والصرف وعلوم البلاغة ، اما الخلاف فقد وقع في القراءات .

ثالثها : الحاق اللفظ بأمثاله في حكم ثبت لها باستقراء كلام العرب حتى انتظمت منه قاعدة عامة كصيغ النسب والتصفير والجمع واصل هذا ان الكلمات الواردة في كلام العرب على حالة خاصة يستنبط منها علماء العربية قاعدة تخول المتكلم الحق في ان يقيس على تلك الكلمات الواردة ما ينطق به من أمثالها .

وقد اطلقوا على هذا النوع من القياس اسم القياس الاصلى وهو الذى سنتكلم عنه كموضوع للبحث .

رابعها : اعطاء الكلم حكم ما ثبت لغيرها من الكلم المخالفة لها في نوعها ، ولكن توجد بينهما مشابهة من بعض الوجوه ، كما اجاز الجمهور ترخيم المركب المزجى قياسا على الاسماء المنتهية بتاء التأنيث ، وكما اجازت طائفة حذف الضمير المجرور العائد من الصلة الى الموصول متى تعين حرف الجر قياسا على حذف الضمير العائد من جملة الخبر الى المبتدأ فتقول : (قضيت الليلة التي ولدت في سرور) اى ولدت فيها لانك تقول : هذا الكتاب الورقة تساوى درهما اى الورقة منه بدرهم .

وقد اطلق بعض الباحثين على هذا النوع من القياس اسم قياس التمثيل للفرق بينه وبين القياس الاصلى :

(الفصل الثانى)

القياس الاصلى وما يقاس عليه

ذكر السيوطي في الاقتراح ان الكلام الذى يوثق بفصاحته يشمل كلام الله تعالى وهو القرآن الكريم وكلام نبيه (ص) وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده الى ان فسدت الالسنة بكثرة المولدين نظما ونثرا عن مسلم او كافر فهذه ثلاثة انواع لا بد في كل منها من الثبوت (32) .

واللسان العربى يجمع تحت اسمه لغات شتى ولكنها تختلف فيما بينها اختلافا يسيرا ، ووجوه هذا الاختلاف معضلة في كتب فقه اللغة وآدابها ولا تكاد

(32) الاقتراح للسيوطي ص 14 .
(33) الخصائص ج 2 ص 10 .

من اختلاف ، وكأنه كان يرمى الى أن اللهجات على اختلافها حجة يصح الاستشهاد بها على أصل من أصول العربية والاستناد إليها في بناء قاعدة من قواعدها (36) .

ان اللغويين والنحاة انما بنوا قواعدهم على كلام العرب بجمع نتف نثرية وشعرية من هذه القبيلة ومن تلك ، من أعرابي في الشمال الى امرأة في الجنوب ، ومن شعر لا يعرف قائله الى جملة غير منسوبة . . . يجمعون هذا الى احوال معروفة مشهورة ويضعون قواعد تصدق على أكثر ما وصل اليهم بهذا الناقص الذي لا يستند الى خطة محكمة في الجمع ، ثم يسدون هذه القواعد بمقاييس منطقية يزيدون اطرافها في الكلام ، حتى اذا أتت بعضهم قراءة صحيحة السند تخالف قاعدته القياسية طمن فيها وان كان قارئها ابلغ وأعراب من كثير ممن يحتج النحوي بكلامهم ، فلا استقراؤه كامل او كاف ، ولا لشواهد التي استند اليها بعض ما للقراءة الصحيحة من القوة ، ولا اللغة تخضع للمقاييس المنطقية التي ابتدعها ، وخير ما يصف اضطراب موقفهم هذا قول الرازي : (اذا جوزنا اثبات اللغة بشعر مجهول ، فجاز اثباتها بالقرآن العظيم أولى ، وكثيرا ما ترى النحويين متحيرين في تقريرها الالفاظ الواردة في القرآن ، فاذا استشبهوا في تقريرها ببيت مجهول فرحوا به وأنا شديد التعجب منهم فانهم اذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقها دليلا على صحتها فلان يجعلوا ورود القرآن دليلا على صحتها كان أولى) (37) وفي هذا المعنى قال ابن حزم في الفصل : (من النحاة من ينتزع من المقدار الذي يقف عليه من كلام العرب حكما لفظيا ويتخذها مذهباً . ثم تعرض له آية على خلاف ذلك الحكم فيأخذ في صرف الآية عن وجهها) .

وقال في موضع آخر : (ولا عجب اعجب ممن ان وجد لامرئ القيس او لزهر او لجريز او الحطيئة او الطرماح او لاعرابي اسدى او ديلمى او تميمى

فالكوفيون يعتبرونها مصدرا هاما من مصادر الدراسات اللغوية ، اما البصريون فقد وقفوا منها موقفهم من سائر النصوص اللغوية وأخضعوها لاصولهم واقبيستهم ، وما وافق منها اصولهم ولو بالتأويل قبلوه ، وما أباهم رفضوا الاحتجاج به ووصفوه بالشذوذ كما رفضوا الاحتجاج بكثير من الروايات اللغوية وعدوها شاذة تحفظ ولا يقاس عليها .

اما المحدثون فقد ذهب أحد الاساتذة الى انها غير متواترة ، بل القراءات بين ما هو اجتهاد من القارئ وبين ما هو منقول بخبر الواحد ، ولذلك فهي ليست بحجة (34) .

وذهب الاستاذ سعيد الانغاني الى انها متواترة وبيء القياس عليها بقوله : (وبعد فقرات القرآن جميعها حجة في العربية متواترها واحادها وشاذها . واكبر عيب يوجه الى النحاة عدم استيعابهم اياها واضاعتهم على انفسهم ونحوهم مئات من الشواهد المحتج بها ولو فعلوا لكانت قواعدهم اشد احكاما) (35) .

وعلى الرغم من أن القراءات غير متواترة وانها اجتهاد من القراء انفسهم — كما يقول الخوئي في كتابه البيان — الا انها يمكن اعتبارها مصدرا من المصادر المهمة للوقوف على وجوه الاختلاف بين اللهجات العربية ، لان القراءات هي المصدر الصحيح الذي حفظ لنا اللغة العربية ممثلة فيها اللهجات لما عرف به القراء في العصور المختلفة من دقة في التلقى والتلقين ومن ضبط واتقان في الرواية .

يؤيد هذا ما لاحظته ابن خالويه من أن كلا من الائمة القراء كان (يذهب في اعراب ما انفرد به مذهباً من مذاهب العربية لا يدفع قصد من القياس وجها لا يمنع) .

كأنه كان يريد القول بأن اختلاف القراءات ينبني على ما بين اللهجات العربية التي قرئ بها القرآن

(34) البيان في تفسير القرآن للخوئي ص 137 .

(35) في أصول النحسو ص 40 .

(36) مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة وانشو لمهدى المخزومي ص 347 .

(37) تفسير فخر الدين الرازي ج 3 ص 193 .

أقوال التابعين هؤلاء مع الرسول والصحابة نقتهم بصحة صدورهم عنهم فيحتجون بها في إثبات مادة لغوية أو دعم قاعدة نحوية أو صرفية .

وكان من الحق أن يتقدم الحديث سائر كلام العرب من نثر وشعر في باب الإحتجاج في اللغة والنحو إذ لا تعهد العربية في تاريخها بعد القرآن الكريم بيانا أبلغ من الكلام النبوي ولا أروع تأثيرا ولا أفعلى في النفس ولا أضح لفظا ولا أقوم معنى ، ولكن ذلك لم يقع كما ينبغي لانصراف اللغويين والنحويين المتقدمين الى ثقافة ما يزودهم به رواة الأشعار خاصة انصرافا استغرق جهودهم ، فلم يبق فيهم لرواية الحديث ودرايته بقية فتعللوا لعدم احتجاجهم بالحديث بعلى كلها وارد بصورة أقوى على ما احتجوا له هم أنفسهم من شعر ونثر .

ومع إجماع اللغويين والنحاة عامة على أن النبي (ص) انصح العرب قاطبة وأن الحديث لا يتقدمه شيء في باب الإحتجاج إذا ثبت لهم أنه لفظ النبي نفسه ، انقسموا فيما يروى من الأحاديث فريقين : فريقا غلب على ظنه أنها لفظه (ص) فأجاز الإحتجاج بها ، وفريقا غلب على ظنه أنها مروية بالمعنى لا باللفظ وإذا لا يجيز الإحتجاج بها .

ونحن عارضون بشيء من التفصيل للمذهبيين ثم خاتمونا برأى المتأخرين من الباحثين .

أولا : مذهب المانعين :

وقد عبر عنه أبو الحسن بن الضائع (- 680 هـ) في شرح الجمل وأبو حيان الاندلسي (- 745 هـ) في شرح التسهيل ، خير تعبير قال أبو الحسن في شرح الجمل : (تجويز الرواية بالمعنى هو السبب عندى في ترك الأئمة - كسيبويه وغيره - الاستشهاد على إثبات اللغة بالحديث واعتمدوا في ذلك على القرآن وصريح النقل عن العرب ولولا تصريح العلماء بجواز النقل بالمعنى في الحديث لكان الأولى في إثبات نصيح اللغة كلام النبي (ص) لأنه انصح العرب . قال : وابن خروف يستشهد بالحديث كثيرا فان كان على وجه

أو من سائر أبناء العرب لفظا من شعر أو نثر جعله حجة يصرفه عن وجهه ويحرفه عن موضعه ويتحيل في حالته عما أوتعه الله عليه) (38) .

ومن أمثلة هذا أنهم قرروا أن المصدرية لا يجوز أعمالها وأن نحو (تسع بالمعدي خير من أن تراه) يحفظ ولا يقاس عليه ، وقد جاء على نحو هذا المثل قوله تعالى : « ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا » (39) ومقتضى ارتفاع منزلة القرآن في الفصاحة واخذه بأحسن طرق البيان ، فانكر بعضهم القراءة وذهب بها آخرون مذهب التأويل والتقدير ، والحق أن نتلقى القراءة المتواترة بالقبول ولا نحمل الآية ما لا تطيقه بلاغتها من التعسف نسي التقدير وبقية على ظاهرها ولا نسلم أن الفصل في هذا مخالف للفصاحة . وقد حاول بعضهم الاعتذار عمن يقولون في الآية أنها تأتي على وجه يخالف مذهبهم النحوي : هذا غير مقبوس أو موقوف على السماع فقال : ان النحاة لما استقرعوا كلام العرب وجدوه على قسمين : قسم اشتهر استعماله وكثرت نظائره فجعلوه قياسا مطردا ، وقسم لم يظهر لهم فيه وجه القياس لقلته وكثرة ما يخالفه فوصفوه بالشذوذ ووقفوه على السماع لآلته غير نصيح بل لانهم علموا أن العرب لم تقصد بذلك القليل أن يقاس عليه .

وإذا سلموا أن ما جاءت عليه الآية مما يخالف مذهبهم عربى فصيح كان اعتذارهم بأن العرب لم تقصد أن يقاس عليه . وفي صحة القياس على ما ترد به الآيات الكريمة مخالفا لما اشتهر في كلام العرب زيادة في أساليب القول وفتح طرق يزداد بها بيان اللغة سعة على سعته .

ب - الحديث الشريف :

يراد بالحديث الشريف أقوال النبي (ص) وأقوال الصحابة التي تروى أفعاله أو أحواله أو ما وقع في زمنه وقد تشتمل كتب الحديث على أقوال التابعين . والذي جعل بعض اللغويين والنحويين يثبتون

(38) ابن حزم في الفصل نقلنا عن كتاب في أصول النحو لسعيد الإفاتى .
(39) سورة الروم ص 30 - 24 .

ومن نظر في الحديث ادنى نظر علم العلم اليقين
انهم انما يروون المعنى .

ثانيهما : انه وقع اللحن كثيرا فيما روى من الحديث ،
لان كثيرا من الرواة كانوا غير عرب بالطبع ويتعلمون
لسان العرب بصناعة النحو ، فوقع اللحن في كلامهم
وهم لا يعلمون ذلك ودخل في كلامهم وروايتهم غير
الفصح من لسان العرب ، ونعلم قطعا من غير شك
ان رسول الله (ص) كان أفصح الناس فلم يكن ليتركهم الا
بأفصح اللغات وأحسن التراكيب وأشهرها وأجزلها .
واذا تكلم بلغة غير لغته فانما يتكلم بذلك مع اهل
تلك اللغة على طريق الاعجاز (41) .

ثانيا : مذهب المجيزين :

وقد عبر عنه من المتقدمين الامام ابن مالك
(— 672 هـ) تلميذ ابن حيان ، والبدر الدمايني في
شرح التسهيل في صدد رده على ابي حيان وهو مذهب
المتأخرين امثال المرحوم الاستاذ طه الراوى والمرحوم
الاستاذ محمد الخضر حسين والاستاذ الدكتور مهدي
المخزومي وهو الاصل .

فابن مالك اكثر من الاستدلال بما وقع في الاحاديث
على اثبات القواعد الكلية في لسان العرب ولا سيما
في كتابه « التسهيل » اكثر من ضاق به ابو حيان شارح
التسهيل غير مرة حتى غلا في بعض هذه المرات فقال :
(والمصنف قد اكثر من الاستدلال بما ورد في الاثر متعقبا
بزعمه على النحويين وما امعن النظر في ذلك ولا صاحب
من له التمييز) (42) .

ثم جاء ابن هشام (— 761 هـ) تلميذ ابي حيان
ونقيضه في مذهبه ازاء الاستشهاد بالحديث ، يكثر من
الاحتجاج به في كتبه ما وجد الى ذلك سبيلا كغيره من
النحاة حتى لفت نظر مترجميه ، فنصوا على انه كان
كثير المخالفة لشيخه ابي حيان شديد الانحراف
عنه (43) .

الاستظهار والتبرك بالروى محسن ، وان كان يرى ان
من قبله اغفل شيئا وجب عليه استدراكه فليس كما
راى (40) .

اما ابو حيان الاندلسي فقد ذكر في شرح التسهيل
في صدد رده على ابن مالك صاحب التسهيل لاحتجابه
بالحديث قال : (قد اكثر المصنف في الاستدلال بما
وقع في الاحاديث على اثبات القواعد الكلية في لسان
العرب ، وما رايت احدا من المتقدمين والمتأخرين سلك
هذه الطريقة غيره ، على ان الواضعين الاولين لعلم
النحو المستقرئين للاحكام من لسان العرب — كابى
عمرو بن العلاء والخليل وسيبويه وائمة البصريين
والكسائي والفراء وعلى بن المبارك الاحمر وهشام
الضرير من ائمة الكوفيين — لم يفعلوا ذلك وتبعهم على
ذلك المسلك المتأخرون من الفريقين وغيرهم من نحاة
الاتاليم كتحاة بغداد واهل الاندلس ، وقد جرى الكلام
في ذلك مع بعض المتأخرين الاذكياء قال : انما ذكر
العلماء ذلك لعدم وثوقهم ان ذلك لفظ الرسول (ص)
اذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن الكريم في اثبات
القواعد الكلية وانما كان ذلك لامرين :

احدهما : ان الرواة جوزوا النقل بالمعنى ، فتجد
قصة واحدة قد جرت في زمانه (ص) فتنقل بالفاظ
مختلفة كحديث (زوجتكها بما معك من القرآن) ، وفي
زاوية اخرى (ملكتكها بما معك من القرآن) وفي ثالثة
(خذها بما معك من القرآن) وفي رابعة (امكناكها
بما معك من القرآن) .

فنعلم يقينا انه (ص) لم يلفظ بجميع هذه الالفاظ
بل لا نجزم بانه قال بعضها ، اذ يحتمل انه قال لفظا
مرادفا لهذه الالفاظ ، فانت الرواة بالمرادف ولم تأت
بلفظه ، اذ المعنى هو المطلوب ولا سيما مع تقادم
السمع وعدم ضبطه بالكتابة ، والاتكال على الحفظ .
والضابط منهم من ضبط المعنى واما ضبط اللفظ فبعيد
جدا لا سيما في الاحاديث الطوال .

(40) خزنة الادب ج 1 ص 23 — 24 .

(41) الاقتراح للسيوطى ص 19 — 21 نقلا عن خزنة الادب للبغدادى ص 24 .

(42) الاقتراح للسيوطى ص 19 وما بعدها .

(43) بغية الوعاة ص 293 او ص 69 .

وقد رد هؤلاء اعتراضات المانعين التي ذكرناها في صدر الحديث فأما المانع الاول : وهو تجويز الرواية بالمعنى فيجبون عليه بان الاصل الرواية باللفظ ومعنى تجويز الرواية بالمعنى في أن ذلك احتمال عقلي فحسب لا يقين بالوقوع ، وعلى فرض وقوعه ، فالمعير لفظا بلفظ في معناه عربى مطبوع يحتج بكلامه في اللغة ، ونحن نعرف مقدار تحرى علماء الحديث وضبطهم لالفاظه حتى اذا شك راو عربى بين (على وجوههم) و (على مناخرهم) اثبتوا شكه ودونوه مبالغة في التحرى والدقة . هذا الى جانب ان كثيرا من الرواة صحابة وتابعين دونوا الحديث من عهد النبى (ص) .

وهم يرون ان الذى في مدونات الطبقة الاولى لفظ النبى نفسه ، فان كان هناك ابدال لفظ بمرادفه فانما ابدله عربى فصيح يحتج به . وان وقع بعد ذلك شك في بعض الروايات من غلط او تصحيف فنزر يسير لا يقاس ابدا على امثاله في الشعر وكلام العرب ، فكثير من الاشعار نفسها رويت بروايات مختلفة وبعضها موضوع وربما كان ما فطنوا الى وضعه منه اقل من القليل ، وجاز عليهم اكثر الموضوع اذا كان واضعه قد احسن المحاكاة ، قال الخليل بن احمد : (ان النحارير ربما ادخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب ارادة اللبس والتعنيث) (44) واما المانع الثانى : وهو وقوع لحن في بعض الاحاديث الروية فهو شيء — ان وقع — قليل جدا لا يبنى عليه حكم ، وقد تنبه اليه الناس وتحاموه ولم يحتج به احد ، ولا يصح ان يمنع من اجله الاحتجاج بهذا الفيض الزاخر من الحديث الصحيح ، الا ان جاز اسقاط الاحتجاج بالقرآن الكريم ، لان بعض الناس يلحن فيه . واثبت تعرف الى هذا انهم قد تشددوا في اخذ الناس بضبط الفاظ الحديث حتى اذا لحن فيه سادر او عامى اقاموا عليه النكير ، بل ان بعضهم ليدخله النار بسببه وكان هذا التشديد متوارثا في جملة الحديث حتى يومنا هذا ، وهذا ما اثبتته احد اعلام الشام وهو السيد جمال الدين القاسمى (— 1332 هـ) : (من قرأ حديث رسول الله (ص) وهو

يعلم انه يلحن فيه سواء اكان في ادائه ام في اعرابه يدخل في هذا الوعيد الشديد (يعنى قوله (ص) : من كذب على متعمدا فليتبوا مقعده من النار) لانه بلحنه كاذب عليه) (45) .

الى هنا ننتمى من قول المتقدمين المجيزين وردودهم على المانعين فلننظر فيما يقوله المتأخرون في هذا المجال .

ثالثا : رأى المتأخرين :

ذهب المرحوم الاستاذ طه الراوى الى الاحتجاج بما صح منها دون قيد او شرط . ويعرض للذين اعترضوا بوجود اعاجم في رواية بعض الاحاديث فيقول : (والقول بان في رواية الحديث اعاجم ليس بشيء ، لان ذلك يقال في رواية الشعر والنثر اللذين يحتج بهما ، فان فيهم الكثير من الاعاجم ، وهل في وسمهم ان يذكرنا لنا محدثا ممن يعتمد به يمكن ان يوضع في صف حماد الراوية الذى كان يكذب ويلحن ويكسر) ومع ذلك لم يتورع الكوفيون ومن نهج منهجهم عن الاحتجاج بمروياته ولكنهم تخرجوا في الاحتجاج بالحديث — ثم لا ادري لم ترفع النحويون عما ارتضاه اللقويون من الانتفاع بهذا الشأن والاستقاء من ينبوعه الفيض بالمعذب الزلال ، فاصبحت اللغة به خصيبة بقدر ما صار ربع النحو منه جديبا :

وكان حالهما في الحكم واحدة

لو احتكنا من الدنيا الى حكم (46)

اما المرحوم الاستاذ محمد الخضر حسين فقد عالج الموضوع في مجلة مجمع اللغة العربية على خير ما يعالجه عالم ثبت مترو وقاض منصف فقال : ونجد الاحتجاج بالحديث مألوا معاجم اللغة ، فنظرة الى معاجم التهذيب للزهري والصاحح للجوهري والمخصص لابن سيده والمجلد ومقاييس اللغة لابن فارس والفائق للزمخشري كافية لدحض ما ادعى ابو حيان بل قد عد ابن الطيب من اصحاب هذا المذهب من النحاة : ابن فارس وابن خروف وابى جنى وابن برى والسهيلي

(44) الصحابى في فقه اللغة ص 30 .

(45) قواعد التحديث من فن مصطلح الحديث ص 156 .

(46) نظرة في النحو (مجلة المجمع العلمى بدمشق) ج 2 ص 325 — 327 .

بل انه قال : لا نعلم احدا من علماء العربية خالف في هذه المسألة الا ما ابداه الشيخ أبو حيان في شرح التسهيل وأبو الحسن الضائع في شرح الجمل وتابعمها على ذلك السيوطي (47) .

وقد انتهى الاستاذ من بحثه الى النتيجة الآتية :

(من الاحاديث ما لا ينبغى أن يكون موضع خلاف بين الفريقين اربعة انواع من الاحاديث) .

اولها : ما يروى بقصد الاستدلال على كمال نصحته وبلوغه ما يمكن لبشر ان يبلغه من حكمة البيان ، فان المعروف في رواة الحديث بهذا القصد ان يحافظوا على الفاظ الحديث نفسها كقوله (ص) : (حمى الوطيس) اى اشتد الضراب في الحرب وقوله (مات جتف أنفه) اى مات على فراشه وقوله (ص) (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا) .

ثانيها : ما يروى للاستدلال على انه (ص) كان يخاطب كل قوم من العرب بلفتهم ككتابه الى همدان وكلامه مع ذى المشمار الهمداني وطنه الهندي وغيرهما .

ثالثها : ما يروى لبيان اقوال كان يتعبد بها او اقر بالتعبد بها كالفاظ القنوت والتحيات وكثير من الادعية التي يدعو بها في اوقات خاصة .

رابعها : الاحاديث التي وردت من طرق متعددة واتحدت الفاظها فاتحاد الالفاظ مع تعدد الطرق دليل على ان الرواة لم يتصرفوا في الفاظها ، فان انفرد بروايته صحابي وتعددت طرق روايته عن الصحابي صح الاستشهاد به ايضا ، اذ تصرف الصحابي في الحديث على تقدير تصرفه فيه لا يمنع من الاستشهاد به ، لان الفاظ الصحابة مما يحتج به في العربية .

ومجمل القول ان الاحاديث التي تتعدد طرقها ويتحد لفظها تصلح للاستشهاد متى كانت تلك الطرق المتعددة متصلة براو يحتج بعبارة في الاحكام اللغوية (48) .

أما الدكتور مهدي الخزومي فهو يرى ان اللغويين والنحاة الاولين اخطأوا حينما ابعدوا جانباً مهما من المصادر اللغوية وهو الحديث لانهم زعموا ان كثيراً من رواته كانوا من الموالي وهم عرب بالتعلم لا بالسليقة والطبع ولا يؤمن على الحديث أن يقع فيه لحن أو تصحيف .

مع أنهم لو ائصفوا لعدلوا عما ذهبوا اليه لانهم كانوا يعلمون مدى حرص المحققين على سلامة الاحاديث ، ومدى ما قاموا به في سبيل المحافظة عليها، وكان المحققون ولا سيما المتأخرين منهم من الدقة بحيث يستبعد عن صنيعهم كثير من الشكوك التي اقامها النحاة عقبات في طريق الاستشهاد بها والاخذ منها . وقد ذكرنا أنهم كانوا لا يتورعون من الاستشهاد بكلام ناس من الموالي امثال الحسن البصري وأبي علي عمرو بن فائد الاسواري وغيرها . يضاف الى ذلك أنهم لو سمعوا سيويوه يروى نصاً لما ترددوا في الاخذ به ، لان سيويوه ثقة ، وهو انما يروى نصاً لغويًا لا علاقة له بحكم من احكام الدين فما بالك بقوم كانوا يحرصون اشد الحرص على سلامة الاحاديث في متن ، وقد ايد ما ذهب اليه ابن مالك بقوله : ولا يسع الدارس الا الاطمينان الى سلامة ما ذهب اليه ابن مالك ومن شايمة في اعتبار الاحاديث من المصادر التي يعتد اللغوي والنحوي والنحوي عليها .

على ان بعض النحاة قد وقف بين الفريقين بين المتاح مطلقاً وهم النحاة الاولون والفريق المثبت مطلقاً وهم ابن مالك وأبو حيان ومن تابعمها موقفاً وسطاً بالحديث مجوزوا الاحتجاج بالاحاديث التي اعتنى بنقل الفاظها .

وشايمة السيوطي فقال : (وأما كلامه (ص) فيستدل منه بما ثبت انه قاله على اللفظ المروي وذلك نادر جدا ، انما يوجد في الاحاديث القصار) .

وبعد هذا ذكر الاستاذ ان الادباء ورواة اللغة كانوا قد انتبهوا الى كذب بعض الرواة فنصوا على الموثوق به منهم وغير الموثوق به متأثرين في ذلك بأصحاب الاحاديث ، فكان ينبغى على علماء العربية ان ينصفوا رواة الحديث من زاوية اعمالهم وتخصصهم .

(47) مجلة مجمع اللغة العربية ج 3 ص 199 بحث (الاستشهاد بالحديث) للاستاذ محمد الخضر حسين .

(48) دراسات في العربية وتاريخها ص 35 .

ج - كلام العرب :

يحتج بالكلام العربي لفرضين : فرض لفظي يدور حول صحة الاستعمال من حيث اللغة والنحو والصرف ، وفرض معنوي لا علاقة له باللفظ ، وقد بحث علماء العربية فيمن نقل الرواة عنهم من اهل المدر والوبر قديما ومحدثين . وتتصوا احوالهم ونقدوها ، فاجتمعوا على الاحتجاج بقول من يوثق بفصاحته وسلامة عرييته وقد صنفوا بحسب الزمان والمكان والاحوال .

فاما الزمان - وهو الذي يدخل في صميم بحثنا - فقد قبلوا الاحتجاج بأقوال عرب الجاهلية وفصحاء الاسلام حتى منتصف القرن الثامن سواء أسكنوا الحضرم البادية .

اما الشعراء فقد قسموا على طبقات اربع : الطبقة الاولى ، الشعراء الجاهليون كما مرء القيس والاعشى وغيرهما ، الطبقة الثانية ، المخضرمون وهم الذين أركوا الجاهلية والاسلام كليد وحسان ، الطبقة الثالثة ، المتقدمون ويقال لهم الاسلاميون وهم الذين كانوا في صدر الاسلام كجريس والفرزدق ، الطبقة الرابعة ، المولدون ويقال لهم المحدثون وهم من بعدهم الى زماننا كيشار بن برد وابى نواس .

فالطبقتان الاولى والثانية يستشهد بشعرهما اجماعا ، اما الطبقة الثالثة فقد اختلفوا فيها ، وذهب عبد القادر البغدادي صاحب خزانة الادب الى جواز الاستشهاد بها (51) .

اما الطبقة الرابعة فلا يستشهد بشيء من اشعارها في احكام اللسان وكان بشار قد هجا الاخفش فأورد الاخفش في كتبه شيئا من شعره ليكف عنه (52) وكذلك سيويه استشهد بشيء من شعر بشار تقريبا اليه لانه كان قد هجاه لتركة الاحتجاج بشعره (53) واستشهد ابو على الفارسي في كتاب الايضاح ببيت ابي تمام :

فينصوا على من صحت ملكته منهم فيقبلوا روايته وينصوا على من لم تصلح ملكته فيرفضوا روايته .

انهم لو فعلوا ذلك لوجدوا انفسهم امام طائفة كبيرة من النصوص تصلح ان تكون من المصادر التي يرجعون اليها في تدوين احكامهم ويسلم لهم المنهج لاستكمال شرائطه ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ومضوا في شأنهم سادرين (49) .

ونحن نؤيد الاحتجاج النبوي ولكن لا مطلقا كما ذهب الى ذلك بعض الباحثين وانما على وفق قرار المجمع وقد رأى المجمع الاحتجاج ببعض الاحاديث في احوال خاصة مبينة فيما يأتي :

1 - لا يحتج في العربية بحديث لا يوجد في الكتب المدونة في المصدر الاول كالكتب الصحاح الست فما قبلها .

2 - يحتج بالحديث المدون في هذه الكتب الاثني عشر المذكور على الوجه الآتي :

أ - الاحاديث المتواترة والمشهورة .

ب - الاحاديث التي تستعمل الفاظها في العبادات

ج - الاحاديث التي تعد من جوامع الكلم .

د - كتب النبي (ص) .

هـ - الاحاديث المروية لبيان انه (ص) يخاطب كل قوم بلغتهم .

و - الاحاديث التي دونها من نشأ بين العرب الفصحاء .

ز - الاحاديث التي عرف من حال روايتها انهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى مثل القاسم بن محمد ورجاء بن حيوة وابن سيرين .

ح - الاحاديث المروية من طرق متعددة والفاظها واحدة (50) .

(49) مدرسة الكوفة لمهدي المخزومي ص 61 .

(50) مجلة مجمع اللغة العربية ج 4 ص 7 قرار الاحتجاج بالحديث الشريف .

(51) خزانة الادب ص 20 .

(52) كتاب الوشح للمريزاني نقلا عن كتاب دراسات في العربية وتاريخها .

(53) خزانة الادب ص 22 .

ينشد بعضهم شعره للآخر . فيرويه عنه كما سمعه ، أو يتصرف فيه على مقتضى لفته . ولهذا تكثر الروايات في بعض الابيات ويكون كل منها صالحا للاحتجاج ، كما يحتج بالشعر الذي يرويه من يوثق به في اللغة واشتهر بالضبط . والاتقان وان لم يعرف قائله وقد تلقى علماء العربية شواهد كتابه مسيويه بالقبول وفيها نحو من خمسين شاهدا لم تعرف أسماء قائلها ، فانما يكون الرد وجيها اذا روى الشعر من لم يكن عربيا فصيحاً ولم يشتهر بالضبط والاتقان فيما يسوقه من الشعر على انه عربى فصيح .

وأما المكان أو بعبارة أخرى القبائل فقد اختلفت درجاتها في الاحتجاج على اختلاف قريها أو بعدها من الاختلاط بالامم المجاورة فاعتدوا كلام القبائل في قلب جزيرة العرب وردوا كلام القبائل التي على السواحل أو في جوار الاعاجم ، وهذا تصنيف أبى نصر الفارابي لهم في الاحتجاج :

« كانت تريض أجود العرب انتقاء للانصح من الانفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق واحسنها مسموعا وأبينها عما في النفس . والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم : — قيس وتميم وأسد فان هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف .

ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم .

وبالجملة لم يؤخذ عن حضرى ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن اطراف بلادهم التي تجاور سائر الامم الذين حولهم ولم يؤخذ من لخم ولا من جذام فانهم كانوا مجاورين لاهل مصر والقبط ولا من قضاة ولا من غسان ولا من اياد فانهم كانوا مجاورين لاهل الشام وأكثرهم نصارى يقرؤون صلاتهم بغير العربية . ولا من تغلب ولا النمر فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية ، ولا من عبد القيس لانهم كانوا من سكان البحرين مخالطين للهند والفرس .

من كان مرعى عزمه وهوومه
روض الامانى لم ييزل مهزولا .

ولم يكن ذلك من شأنه لان عضد الدولة كان يحب هذا البيت وينشده كثيرا (54) .

وذهب بعض علماء العربية الى صحة الاستشهاد بكلام من يوثق به من المحدثين واختاره الزمخشري وتبعه الشارح المحقق ، فانه استشهد بشعر أبى تمام في عدة مواضع من هذا الشرح واستشهد الزمخشري أيضا في تفسير اوائل البقرة من الكشف ببيت من شعره وقال : (وهو وان كان محدثا لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية فاجمل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ، الا ترى الى قول العلماء : الغليل عليه بيت الحماسة فيعتنمون بذلك لوثوقهم بروايته واتقانه) ونحا هذا النحو العلامة الرضى فقد استشهد بشعر أبى تمام في عدة مواضع من شرحه لكافية ابن الحاجب ، وجرى على هذا المذهب الشهاب الخفاجى فقال في شرحه لدرة الفواحي : « اجمل ما يقوله المتنبي بمنزلة ما يرويه » . واعترض على هذا المذهب ، بأن قبول الرواية مبنى على الضبط والوثوق واعتبار القول مبني على معرفة اوضاع اللغة العربية والاحاطة بقوانينها (55) . وكيف يحتج بأقوال هؤلاء المولدين وقد وقعوا في اغلاط كثيرة لا يستطيع احد تخريجها على وجه مقبول فهذا أبو تمام يقول :

لمذلته في دمتين :تقادما

محوتين لزئيب وسعاد

والصواب « تقادمتا » . وهذا المتنبي يقول :

فان يك بعض الناس سيفا لدولة

فنى الناس بوقات لها وطبول

والصواب في جمع بوق بوق أو ابواق (56) .

ويحتج بالبيت الذى لا يعرف قائله متى رواه عربى ينطق بالعربية بمقتضى السليقة . وكان العرب

(54) وفيات الاعيان — تاريخ ابن خلكان ج 1 ص 362 .

(55) خزانة الادب ص 21 .

(56) دراسات في العربية وتاريخها ص 37 .

فروقى ، ويتأيد السماع الذى عول عليه سيويوه بقياس فعولة على فعيلة ، فان قياس النسبة السى فعيلة فعلى نحو حنيفة وصحيفة وبجيلة ، فيقال فى النسبة اليها حنى وصحنى وبجلى .

الثانى : ان يرد لفظ معين على وجه يخالف القياس والسماع ، وهذا الوجه المخالف للقياس والسماع لا يقام له فى نظر الجمهور وزن ولا يجيزون لاحد النسخ على مثاله ، الا ان الاخفش حاد عن هذا السبيل حيث سمع تولهم هداوى فى جمع هدية نجعله مقيسا فى كل ما كان لاه ياء ، وهذه الكلمة شاذة فى السماع والقياس اذ المسوع والموافق للقياس فى مثل هذا ابقاء الياء بحالها . فيقال فى جمع هدية وعطية ومزية ، هدايا وعطايا ومزايا . ومن هذا القبيل ان القياس فى اسم المفعول المأخوذ من الفعل الثلاثى المعتل العين بالواو وحذف احد الواوين ، فيقال فى اسم المفعول من رام مروم وورد فى الفاظ معدودة النطق بالواوين كليهما فقال بعض العرب : ثوب مصون وممك مـدووف وفرس مـتوود . ومثل هذه الكلمات الشاذة تحفظ عند الجمهور ولا يصح لاحد ان يقيس عليها . وخالفهم فى هذا المبرد والحقا بقبيل ما يقاس عليه .

الثالث : كلمات معدودة تاتى على وجه مخالف للقياس ، ويكثر استعمالها على الوجه المخالف حتى يقل أو يفقد استعمالها على وجه القياس مثل استحوذ واستصوب ، فقد ورد على خلاف القاعدة القاضية بقلب واوها الفا كما يقال استقام واستعار واستنار . ومثل عبيد تصغير عيد ، ومقتضى القاعدة فى القياس عويد لانه مثل عاد يعود والتصغير كالجمع يرد الاسماء الى اصولها ومن هذا النوع ما يرد على الوجه الموافق للقياس ايضا نحو استحوذ واستصوب ، فقد ثبت عن العرب انهم قالوا : استحاذ واستصاب ، فيجوز ذلك العمل فيه على الوجهين بيد ان الوجه الاكثر فى السماع هو الارجح فى الاستعمال لانه مألوف عند المخاطبين اكثر من الوجه الذى قل فى السماع وان كان ارجح من جهة القياس .

اما الالفاظ التى لم ترد الا على الوجه المخالف للقياس نحو عبيد فيقتصر فيها على ما ورد عن العرب

ولا من ازد عمان لمخالطتهم للهند والفرس .

ولا من اهل اليمن اصلا لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة فيهم . ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الامم المتبعين عندهم . ولا من حاضرة الحجاز لان الذين نقلوا اللغة سادفهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت السننهم « (57) .

واما احوال هؤلاء العرب المحتج بهم فخيرها ما كان اعقب فى التبدى والسق بعبشة البادية ولذا كان مما يفخر به البصريون على الكوفيين اخذهم عن الاعراب اهل الشيع والقيصوم وحرشة الضباب واكله اليرابيع ويقولون للكوفيين : « اخذتم عن اكلة الشواريز وياعة الكواميخ » ، وقد نص الفارابى بعد قوله المتقدم اتفا على صناعة هؤلاء العرب وصفاتهم فقال : « كانت صنائع هؤلاء التى بها يعيشون الرعاية والميد واللوصية وكانوا اتواهم نفوسا واتساهم تلويا واشدهم توحشا وامنعهم جانبيا واشدهم حمية واحبهم لان يغلبوا ولا يغلبوا واعسرهم انتقيادا للبلوك واجفاهم اخلاقا واقلمهم احتمالا للضم والذلة » (58) .

د - القياس على الشاذ :

للحكم الذى ورد به السماع النادر اربعة انواع :

الاول : ان يرد لفظ معين على وجه لم يرد السماع بخلافه لا فى اللفظ عينه ولا فيما كان من نوعه .

وهنا انقسم النحاة واللغويون فيما بينهم فسى القياس عليه فسيويوه يكتفى بهذا اللفظ الواحد ويتخذه اصلا يقيس عليه كل ما كان من نوعه . ومثال هذا شنأى فى النسبة الى شنوءة ، فقد اكنى بهذا الشاهد وجعل وزن فعلى قياسا فى كل ما كان على صيغة فعولة مع انه لم يقع اليه من شواهد الا هذه الكلمة المفردة .

وذهب الاخفش بكلمة شنأى مذهب الشاذ الذى لا يقوم عليه قياس واخذ بالاصل الاول للنسب وهو ابقاء الكلمة من حالها فيقال فى النسبة الى فروقة

(57) كتاب الفارابى (الالفاظ والحروف) نقلا عن الاقتراح للسيوطى ص 22 .
(58) الاقتراح للسيوطى ص 22 .

الا ان يبدو لنا ان تتعلق بمذهب من يجيز اجراء الالفاظ على مقتضى القياس زيادة على الوجه الثابت من طريق السماع .

الرابع : ان ترد الفاظ معينة على ما يوافق القياس ويخالف السماع ومثال هذا ان المعروف في خبر عسى كونه مضارعا مقرونا بان او مجردا منها وورد اسما صريحا في امثلة معدودة فقالوا : في مثل (عسى الغوير ابؤسا) وتقول الشاعر :

اكثرت في العذل ملحا دائما

لا تكثرن انسى عسيت صائما (59)

ومجمل القول ان النحاة اختلفوا في الوارد على وجه الشذوذ من حيث الاعتداد به في القياس . ونسى شرح الفصح لابن خالويه جاء قوله : « كان الاصمعي يقول انصح اللغات ويلغى ما سواها . وابو زيد يجعل الشاذ والفصح واحدا » .

ومن انكر القياس على الشاذ ابن السراج فقال : (ولو اعترض بالشاذ على القياس المطرد لبطل اكثر الصناعات والعلوم ، فمتى سمعت حرفا مخالفا لا شك في خلافه لهذه الاصول فاعلم انه شاذ ، فان كان سمع ممن ترضى عربيته ، فلا بد ان يكون قد حاول به مذهبيا او نحا نحوا من الوجوه واستهواه امر غلط) (60) .

ثم ان الكوفيين يعتقدون بما ورد من الكلمات الشاذة ويعملون بالقياس عليها ، والبصريون يمنعون من القياس على الشاذ ويذهبون في مثله الى ان قتاله نحا به نحوا خلاف ما يظهر منه ويردونه الى الاصل المعروف عندهم على طريق من التأويل (61) . وابن مالك لا يكلف نفسه تأويل الشاذ ولا يذهب فيه مذهب الكوفيين من اباحة القياس عليه بل يصفه بالشذوذ او يجعله من قبيل ما دفعت اليه الضرورة (62) ومن امثلة هذا انهم ذكروا في شرط صيغة افعل التفضيل

ان لا يكون اصل الوصف على وزن افعل نحو ابيض واسود ، ولما جاءهم قول الشاعر :

جارية في درعها الفضفاض

ابيض من اخت بنى ابيض

انزله الكوفيون منزلة المقيس عليه وتاوله البصريون على انه قولهم (باض فلانا) اذا غلبه وفاته في البياض . وابقاه ابي خالويه على ظاهره وطرحه الى المسوعات الشاذة .

ومن الاقوال الشاذة مالا تجد للتأويل فيه مساغا ومن امثله ان البصريين يمنعون ان تجمع الصيغة التي لا تقبل ناء التانيث جمع مذكر سالما نحو اسود واحمر . واجازه الكوفيون تمسكا بقول الشاعر :

فما وجدت نساء بنى تميم

حلائل اسودين واحمرين (63)

ولا يتخلص البصريون من هذا الشاهد الا بطرحه الى النادر الذي لا يقوم عليه قياس . والتأويل انما يقتحمه البصريون اذا كان اللفظ المخالف للمعروف في اللسان واردا عن الفرد وتحوه ممن يتكلم باللغة المألوفة واما اذا ثبت انه لغة قبيلة فلا وجه لتأويله والخروج به عن ظاهره ولهذا ابطال ابن هشام تأويل ابي على الفارسي وابي فزار لقولهما (ليس الطيب الا المسك) برفع المسك ، لان ابا عمرو بن العلاء اثبت ان رفع خبر ليس الواقع بعد الا لغة تميم (64) .

والحق فيما يظهر ان ما يجيء على غير القياس قسما :

احدهما : ان يكون كلام العرب سائرا على سنة معروفة ووضع عام فتسمع الكلمة او نحوها ممن لا يعرف بالفصاحة وهي تخالف المعروف في مجارى الكلام فهذه لا تصلح ان تكون موضعا للقياس بل الكلمة او

(59) شرح ابن عقيل ج 1 ص 324 .

(60) دراسات في العربية وتاريخها ص 42 .

(61) الانتصاف في مسائل الخلاف ج 1 ص 148 .

(62) شرح ابن عقيل ج 2 ص 173 .

(63) الانتصاف في مسائل الخلاف ج 1 ص 40 .

(64) مغنى اللبيب ج 1 ص 294 .

الكلمتان لا تقومان في وجه القاعدة التي يجري عليها الفصحاء في عامة مخاطباتهم ، ولو نقلت عن نصيح عربي اذ يجوز ان تكون قد صدرت منه على وجه الغلط أو التقصد الى تحريف اللغة . فان السنة الفصحاء تد تقع في زلة الخطأ وتطوع لهم متى قصدوا الى تغيير الكلمة عن وصفها المعروف لهزل ونحوه .

وقد جرت عادة النحاة ان يصفوا خروج العربي الفصيح عن القاعدة بالشذوذ ولا يبالون ان يسموا خروج المولد عنها بالخطأ واللحن . وقد يصفون خروج العربي عن الاصول بالغلط بناء على ان العربي يستطيع ان ياجن اذا تعمد اللحن كما انه يستطيع ان يتكلم بغير لغته اذا تعمد ذلك . يذكر النحاة في شروط عمل ما عمل ليس في لغة اهل الحجاز مراعاة الترتيب بحيث لا يتقدم خبره على اسمها فورد قول الفرزدق :

« اذ هم تريش واذا ما مثلهم بشر »

فقدم خبر ما على اسمها . فقالوا : قول الفرزدق هذا شاذ او غلط اي لحن لان الفرزدق تميمي واراد ان يتكلم بلغة اهل الحجاز (65) . ولم يدر ان من شرط نصبها للخبر الترتيب بين اسمها وخبرها ، وقولهم ان العربي لا يقدر ان ينطق بغير لغته محمول على تكلمه وهو على حال سليقته ، واما عند تعمد النطق بالخطأ او بغير لغته ، فذلك ميسور له من غير شبهة .

ثانيهما : ما يرد في الكلام الفصيح ، ونتحقق انه لم يصدر عن خطأ او تلاعب في اوضاع اللغة مثل آيات الكتاب الكريم والاحاديث التي قامت القرائن على انها مروية بالفاظها العربية الصحيحة ، وهذا ان كان كلمة خرجت عما نسبه قياسا نحو معائش بالهمز في احدى القراءات الصحيحة ، صح لنا ان نعطيها حكم استحوذ واستصوب فنتكلم بها ثقة بانها كلمة لا شبهة في معناها ولكننا نرجع بأمثالها الى حكم القياس وهو ان مفاعل لا تقلب الياء فيه همزا متى كانت الياء عينا في بناء مفردة ، فان كان راجعا الى النظم خالفناهم في دعوى خروجه

عن القياس وصح لنا ان نعدده فيما يقاس عليه وننسج على منواله ان اباه البصريون والكوفيون فلا نبالي ان تقدم معمول المصدر على المصدر متى كان المعمول ظرفا او جارا ومجرورا وان منعه جماعة من النحاة ، فلو قال احد : رزق فلان على خصمه الفوز ان قال يعجبني امام السلطان تكلمك بالحق . لتضينا لقوله بالفضاحة اذ له اسوة بقوله تعالى : « ولا تأخذكم بهما رافة في دين الله » النور 24 - 2 وقوله تعالى : « فلما بلغ معه السعي » الصافات 37 - 102 ولا نبالي بتقديم معمول صلة ال على ال متى كان المعمول ظرفا او جارا ومجرورا وان منعه كثير من النحاة ، فلو قال احد : اني لزيد من المحبين ، لتضينا قوله بالقبول اذ لم يزد على ان اقتدى بقوله تعالى « وكانوا فيه من الزاهدين » يوسف 12 - 20 وقوله تعالى « واناله لناصرهون » (66) يوسف 12 - 11 .

هـ - القياس على ما لا بد من تاويله بخلاف الظاهر :

قد يرد في كلام العرب ضرب من الكلام على وجه شائع لا يستقيم المعنى الا بتخريجه على خلاف ظاهره ، ومقتضى مذهب سيوييه والجمهور المنع من القياس عليه وان كان وجه تاويله مما يسعه القياس . ومما يساق شاهدا على هذا قولهم في المصدر الذي كثر مجيئه حالا انه مقصور على السماع مع انهم ياولون المصدر باسم الفاعل او يقدرن معه مضافا يصلح ان يكون حالا فيكون المراد من المصدر (نحو بفتة في قولهم : طلع زيد بفتة) اسم الفاعل او يحمل على انه في التقدير ذا بفتة (67) واطلاق المصدر مرادا منه اسم الفاعل وحذف المضاف شائعان في الاستعمال بحيث لا يقفان عند حد السماع .

وذهب بعضهم الى انه من باب ما يقاس عليه . وهذا المذهب بالنظر الى ما يحتمله التركيب من الوجوه المقبولة في القياس مذهب وجيه ويشد ازره ان علماء البلاغة استحسنا حمل المصدر على الذات عند قصد المبالغة نحو : زيد عدل او رضا . وهذه المبالغة قد تقصد عند ايزاده مورد الحالية .

- (65) شرح ابن عقيل ج 1 ص 305 هامش .
 (66) دراسات في العربية وتاريخها ص 44 .
 (67) شرح ابن عقيل ج 1 ص 534 .

في مثل هذا يرجع فيهما الى حال المخاطب ، اذ الذي يطلق الملة على نفس الرغيف ، ويظهر لنا من قرينة حاله أو صريح مقاله انه اطلقها على اعتقاد انها موضوعة للرغيف بوضع حقيقي لا يخلص من سهام التخطئة ولو احتملت عبارته وجها من وجوه القياس الصحيح .

ومن هذا القبيل حكم ابن قتيبة ايضا على قول العامة « تجوع الحرة ولا تاكل ثدييها » بأنه خطأ وقال : الصواب بثدييها فقال ابن السيد في شرحه : اما ما يذهب اليه العامة من ان المعنى لا تاكل لحم ثدييها فهو خطأ . ولكن يجوز على التأويل بحذف المضاف الى اجر أو ثمن ثدييها (71) . أو على المبالغة بجعل اكلها لاجر ثدييها بمكان اكل الثديين نفسها .

والتفصيل الذي سبق آتفا من النظر في مثل هذا الى حال المتكلم يجرى هنا لولا ان العبارة مثل والامثال لا تغير ، فمن تصد بها ضرب المثل فقد أخطأ من جهة تحريف المثل وان كانت العبارة التي ينطق بها العامة في نفسها صحيحة متى صدرت ممن يلاحظ المضاف المحذوف أو يقصد الى ذلك من المبالغة (72) .

و - القياس في صيغ الكلم واشتقاقها :

وخصصنا النظر على القياس في المصادر

المصدر بأنواعه الثلاثة الاصلى والمبني والصناعي يدل على المعنى المجرد « وهو المعنى العقلي المحض الذي لا وجود له في غير الذهن » فلا يدل - بذاته - على ذات ولا على زمن ولا افراد ولا تثنية ولا جمع ولا تانيث ولا تذكير ولا علمية ، ولا شيء أكثر من ذلك المعنى المجرد والمعاني المجردة كثيرة لا تكاد تحصر والحاجة الى استعمالها شديدة ومن العسير على غير العرب الاوائل معرفة المصدر الصحيح للفعل والاهتداء اليه بين المصادر الكثيرة المتنوعة .

ومن هذا الباب قولهم : ان اسم الزمان لا يخبر به عن اسم الذات وجاعوا الى نحو قولهم (الليلة الهلال) وأولوه بتقدير اسم معنى وهو في هذا الشاهد لفظ طلوع مضافا الى الهلال (68) .

والحق فيما يظهر ان المنع من القياس في مثل هذا مقيد بما اذا لم يقصد المتكلم الى تأويل قريب ووجه مقيس ، اما اذا نوى في الكلام اسم معنى يضيفه الى المبتدأ فيستقيم به المراد ، فانه يلتحق بسائر الجمل التي يحذف فيها المضاف لقرينة تشير اليه .

ولا بأس هنا ان نسوق بعض الامثلة بهذه المناسبة التي عددها بعض الابداء خطأ وهو محتمل لوجه من وجوه القياس الصحيح :

انكر الحريري قولهم : (هو قرابتي) وليس هذا بمنكر من القول متى عرف المتكلم ان القرابة مصدر ، وعمد الى اطلاقه على الموصوف به على ضرب من الجواز أو التقدير .

وحكم صاحب المصباح على قولهم (اذن العصر) بالخطأ ، والصواب اذن بالعصر مع ان اسناد الفعل الى المفعول به ولو بوسيلة حرف الجر غير عزيز وانما يحكم عليه بالخطأ اذا صدر ممن لا يدري وجوه تصاريف الكلام العربي بفطرته أو بتلقيته .

ويشاكل هذا قول ابن قتيبة في ادب الكاتب : (الملة يذهب الناس الى انها الخبزة فيقولون : اطعمنا ملة ، وذلك غلط ، انما الملة موضع الخبزة) (69) .

قال ابن السيد في شرحه : (وليس يمتنع عندي ان تسمى الخبزة ملة لانها تطبخ في الملة كما يسمى الشيء باسم الشيء اذا كان منه بسبب ، او يخرج على حذف المضاف الى خبز الملة) (70) .

والصواب ما عرفناه من ان التخطئة والتصويب

(68) شرح ابن عقيل ج 1 ص 185 .

(69) ادب الكاتب ص 32 .

(70) الاقتضاب في شرح ادب الكاتب ص 116 .

(71) نفس المصدر السابق ص 221 .

(72) دراسات في العربية وتاريخها ص 48 .

والآن اتصر عن سمية باطلسى
وأشار بالوجلى على مشير
وتوله :

على الغزلى منى السلام فربما
لهوت بها فى ظل مخضلة زهر

وقال : لم يسمع من الوجلى والغزلى فعلى وإنما
تاسهما بشار وليس هذا مما يقاس انما يعمل فيه
بالسمع .

ثالثها : ما جرى الخلاف فى جواز القياس عليه
كطائفة من مصادر الفعل الثلاثى نحو فعل مصدر
للفعل المتعدى كشرى وفهم ونصر ونحو فعل مصدر
للفعل اللازم كخرج ونحو فعول مصدر لفعل اللازم
كتمعد وغدا (74) . وسبب الخلاف فى القياس أن جمهور
النحاة وجدوا لكل واحد من صيغ هذه المصادر أمثلة
كثيرة تجرى عليه بنظام فذهبوا فيها مذهب القياس .

ورأى آخرون أن أفعالا كثيرة مما يتحقق فيه
شرط تلك المقاييس قد وردت مصادرهما فى صيغ خارجة
عن القياس فصرفتهم كثرة انتقاص هذه المقاييس عن
الاعتداء بها وذهبوا الى أن مصادر الأفعال الثلاثية
انما يرجع فيها الى السماع .

ثم ان الذين ذهبوا بها مذهب القياس فريقان :
الفريق الاول ويمثله سيوييه ، يرى أن كل الضوابط
التي تحدد وتضبط مصادر الفعل الثلاثى لا يصح
استخدامها قياسا مطردا وإنما تستخدم حين لا يكون
للفعل مصدر مسموع من العرب . فاذا ورد فعل لم
يعرف عن العرب كيف نطقوا بمصدره جاز استخدام
القياس بتطبيق الضابط والقاعدة أما مع ورود المصدر
المسموع المعروف فلا يجوز لاننا مقيدون بالمصدر الذى
نطقت به العرب وعرفناه عنهم ولا داعى معه لخلق
مصدر جديد لم ينطقوا به نسا .

أما الفريق الثانى ويمثله الفراء وابن جنى
فيرى أن فى رأى سيوييه اعتناء من غير داع اذ من

فلوضع ضوابط للكشف عنه والاهتداء اليه فى
يسر وسهولة وتوفيق عكف اللغويون والنحويون
منذ عصور بعيدة على الكلام العربى المأثور وعرضوا
للمصادر الواردة بأكثره ودرسوها دراسة وافية من
نواحيها المختلفة وبذلوا فيها الجهد كعادتهم مصممين
أن يصلوا من وراء هذه الدراسة الصادقة المضنية
الى تجميع المصادر واستخلاص ظواهرها وخواصها ثم
تصنيفها أصنافا متماثلة ، لكل صنف أوصافه وخصائصه
التي ينفرد بها وتشارك فيها أفراد واحد واحد دون
غيرها بحيث يصح أن ينطبق على كل صنف عنوان خاص
به تندرج تحته أفراد ولا يشاركها فيه أفراد صنف آخر
له ء وانه الخاص وله أوصافه وخصائصه التي تغاير
ذاك كما هو الشأن فى كل القواعد والضوابط العلمية .

وقد نجحوا فيها أرادوا فجمعوا المصادر جمعا
حييدا قدر استطاعتهم الجبارة ثم صنفوها ونوعوها
وجملوا لكل صنف ونوع قواعد وضوابط دقيقة تضم
تحتها أفراد كثيرة المبعثرة وتنطبق عليها وعلى
نظائرهما مما نطق به العرب وما استنطق به أجيال
تادمة لا عداد لها . والعارف بتلك الضوابط والقواعد
يستطيع أن يهتدى الى المصدر الذى يريد فى سرعة
وتوفيق (73) .

وانقسمت المصادر بعد هذا ثلاثة أقسام :

أحدها : ما لا شبهة فى صحة القياس عليه نحو
فعله مصدرا للفعل الرباعى المجرى كخرج وعربد ،
ونحو أفعال مصدرا للفعل الرباعى المزيد كآكرم ونحو
تفعل مصدرا للفعل المضعف كعلم ونحو مفاعلة مصدرا
للفعل الرباعى أيضا كخاصم ونحو افتعال مصدرا للفعل
الخماسى كاكتمسب ونحو تفعل مصدرا لما جاء على
تفعل كتكلم .

ثانيها : ما لا يختلف فى تصره على السماع لقلة
ما ورد منه فى الكلام كالمصدر الوارد على فعال نحو
كذب كذايا أو الوارد على فعلى نحو الحثيثى للبالغة
فى الثحات . أو ما جاء على فعلى نحو جمرى ، وقد
طعن الإخفش على بشار فى قوله :

(73) النحو الوافى ج 3 ص 147 .
(74) دراسات فى العربية وتاريخها ص 52 .

قد يكون المصدر الذي نضمه ولم ينطق به العرب نسا غريبا على السماع ولكن هذه الغرابة والوحشة تزولان بالاستعمال .

أما المصادر السماعية أو المصادر الشاذة فالحكم الصحيح على مثلها انه يجوز استعمال كل واحد منها بذاته مصدرا سماعيا مقصورا على فعله الخاص فلا يجوز استخدام وزنه في ايجاد صيغة لفعل آخر غير فعله .

كما يجوز أيضا استعمال المصدر القياسي لفعله، فاستعمال المصدر السماعي لفعل معين لا يمنع استعمال المصدر القياسي لهذا الفعل ، فمن شاء أن يصطنع المسوع أو القياسي فله ما شاء ويجرى هذا على كل فعل له مصدران مقيس ومسوع . فإن استعمال أحدهما مباح لأن استعمال المسوع مقصور على فعله دون باتى الإنعمال فلا يجوز صوغ مصدر على وزن المسوع لفعل آخر بخلاف المصدر القياسي فصيفته ليست مقصورة على فعل واحد بل هي عامة شاملة لكل فعل توافرت فيه الشروط وأدخلته تحت العنوان العام الذى ينطبق عليه وعلى نظائره المصدر القياسي (75).

الفصل الثالث

القياس ومجمع اللغة العربية :

ذكرنا فيما سبق أن الفارسي وابن جنى وصلا بالقياس الى ثروته . وما يؤسف له أن هذه المدرسة لم تستمر في سيرها حتى توثى ثمارها إذ بدأت تتراجع القهتهرى بعد المئة الرابعة وغلب على اللغة وعلومها الجهود ثم آل هذا التراث الى علماء لا سليقة لهم فمشوه بأغشية من مؤلفاتهم لا روح فيها فلما كثرت الصحف والمجلات والمؤلفات احتاج علماء اللغة الى فيض من المصطلحات يعبرون بها عن حاجات العصر الحديثة فظهر فريقان : فريق دعا الى ادراج لغة السوق في الكتابة والمدارس على علميتها وعجمتها . وفريق جمد على ما ورد عن العرب الاولين . وكان تجاذب بين الفريقين معها اتصارهما الى أن قبيض الله فريقا ثالثا حاول الحرص على التراث العربى الكريم فحشر

المقرر أن ما هو مقيس على كلام العرب فهو من كلام العرب فليس استخدامنا المصدر القياسي مع وجود السماعى الا كاستخدامنا الالفاظ والكلمات التى تجرى عليها الرفع أو النصب أو الجر أو الجزم فى اساليبنا الخاصة التى ننشئها انشاءا يختاره كل منا على حسب هواه ، ونؤلفها تاليفا مبتكرا لم تنطق به العرب نسا ولم تعلم عنه شيئا وان كان لا يخرج فى هيئة تكوينه ومادة كلماته وترتيبها وضبط حروفها على النسق الوارد عنهم ولا يتعدى حدودهم العامة فهى اساليبنا ومن صنعنا وهى فى الوقت نفسه اساليب عربية صميية ، وتسمى بهذا الاسم لجرياتها على النظام العربى الاصيل نسى مفرداتها وطرائق تركيبها وضبط حروفها فلا داعى عنده لمنع استخدام المصدر القياسي مع وجود السماعى المعروف .

وتد رأى المجمع اللغوى الاعتماد على ما قاله ابن جنى وعلى ادلته فى كثير من المسائل الاخرى كما فى الجزء الاول من مجلة المجمع ص 226 .

ونحن نؤيد الفراء وابن جنى فيما ذهبوا اليه لان تصر القياس على الإنعمال التى لم يرد لها مصادر مسبوقة يقتضينا أن نرجع لكل المظان المختلفة ونطيل البحث حتى نطمئن الى عدم وجود مصدر سماعى كى نستطيع استعمال المصدر القياسى . وفى هذا من الجهد المضنى والوقت الطويل ما لا يقدر عليه خاصة الناس بل علمتهم ، ولو اخذنا به قبل استعمال كل مصدر لحملنا انفسنا ما لا نطيق ودفعناها الى الياس والانصراف عن لفتنا وانكرنا واقع الحياة الذى قضى باستقلال العلوم والفنون وترغ طوائف العلماء للفروع المستقلة والاعتماد على رأيهم الخاص فيما تفرغوا له ، ثم ما هو المراد الدقيق من عدم معرفة المصدر الوارد للفعل ؟ ما حدود هذا ؟ ما ضبطه ؟ وكيف يتحقق مع تفاوت الناس علما وعملا واقتدارا على استحضر المراجع وغيرها ؟ لهذا فرأى الفراء واتصاره شديد وفيه رفق وحكمة ومساييرة واضحة لطبائع الاشياء وليس فيه ما يسىء الى اللغة أو يسد المسالك أمام الراغبين ، فيها المقلبين على اصطناعها واعلاء شأنها ، لهذا يجب الاخذ به والاعتصار عليه .

(75) النحو الوافى ج 3 ص 149 هامش .

من ساعد الجد يتحرى لهذه المستحدثات مصطلحات عربية ، فان لم يجد أحدث لها من طريق الإشتقاق أو المجاز أو التعريب أحيانا قليلة .

وكانت أول محاولة في هذا الشأن قام بها المجمع العلمي العربي بدمشق الذي انشئ على عهد الملك فيصل الأول سنة 1918 وكان نشيطا كل النشاط أول حياته فأبد الصحافة ودواوين الحكومة والمدارس والمعاهد بفيض صالح من الاسماء والمصطلحات كما انصرف الى اصلاح لغة الدواوين والصحف والكتب المدرسية بحيث لم يكن يجوز طبع كتاب لم ينظر في لفته احد أعضاء المجمع غير الجاهلين .

ولم يطل بمجمع دمشق هذا النشاط أكثر من عشر سنين ، ولكن الامر استمر خارجه وسهرت المعاهد العليا والثانوية على استمرار النهضة . ولا ينبغي أن ننسى هنا أثر التراجمة الأولين في مطلع النهضة بمصر ولا أثر المصححين في المطبعة الاميرية وفيها من شيوخ الازهر وغيرهم . فما ترجم تديبا من كتب علمية في الطب والهندسة والعلوم حافل بأوضاع عربية وثمرات من ثمرات القياس تستحق التقدير ، وقد ينفع المجمع اليوم اطالة النظر فيما تشقت في هذه الطبقات القديمة النادرة من مصطلحات ونحت واشتقاق فالمعروف أن مدرسة الالسن وأسائذتها وخريجها اتسمت بكثير من العمل والجد وقليل جدا من الاعلان والتبجح (76) .

ثم جاءت بعد هذه المحاولات محاولة مصر وهي من أهم المحاولات ، حيث صار الشعور بضرورة المجمع رغبة عامة للامة لبأها الملك مؤاد الأول حيث أسس (مجمع مؤاد الأول للغة العربية) وبدأ عمله سنة 1934 وقد ضم حين التأسيس اعلاما من خير علماء العربية .

وقد نص في المادة الثانية من مرسوم انشائه : ان المجمع يحافظ على سلامة اللغة العربية وجعلها

وأفية بمطالب العلوم والفنون في تقديمها ملائمة حاجات الحياة في العصر الحاضر . هذا وقد أصبح اسم المجمع اليوم : مجمع اللغة العربية (77) .

وكان في جملة ما عالج من موضوعات قضية القياس في اللغة فأصدر فيها بعد مذكرات حول المشروعات المتقدمة قرارات سديدة يصح أن نعدها بعنا لحركة القياس بعد نوم امتد تسعمائة سنة من الملة الخامسة للهجرة حتى اليوم . والقرارات التي اتخذها المجمع من محضر الجلسات هي :

1 - قرار التضمين : (78) .

التضمين : أن يؤدي فعل أو ما في معناه في التعبير مؤدى فعل آخر أو ما في معناه فيعطى حكمه في التغذيةى واللزوم . والمجمع يرى أنه قياسي لا سماعى بشروط ثلاثة :

الأول : وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر ويؤمن معها اللبس .

الثاني : تحقق المناسبة بين الفعلين .

الثالث : ملائمة التضمين للذوق العربي .

ويوصى المجمع ألا يلجأ الى التضمين الا لغرض بلاغى . ومن أمثله في القرآن : (79)

1 - قوله تعالى « وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم » البقرة (2 - 14) وأصل خلا يتعدى بالباء . يقال خلوت بفلان فضمن هنا معنى الانتهاء أو الامضاء فعدى بالى .

2 - قوله تعالى : « الله يستهزىء بهم ويمدهم في طفياتهم يمهون » البقرة (2 - 15) أصله ويمد لهم في طفياتهم ، ضمن معنى يزيدهم فعدى بنفسه .

3 - قوله تعالى : « والله يعلم الفساد من المصلح » البقرة (2 - 220) ضمن يعلم معنى يميز فتعدى بمن .

(76) في اصول النحو ص 119 .

(77) مجلة مجمع اللغة العربية الملكى ج 1 ص 6 .

(78) مجلة مجمع اللغة العربية الملكى ج 1 ص 33 .

(79) نفس المصدر ج 1 ص 189 محاضرة عنوانها (الغرض من قرارات المجمع والاحتجاج لها) للاسكندرى .

4 - قوله تعالى : « ولتكبروا الله على ما هداكم » البقرة (2 - 185) ضمن لتكبروا معنى لتحمدوا فعدى بعلى .

5 - قوله تعالى : « فإماته الله مئة عام ثم بعثه » البقرة (2 - 295) ضمن أماته معنى البعث أى البعث مئة مئة عام .

6 - قوله تعالى : « لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا » آل عمران (3 - 115) الألو : (التقصير) وأصله أن يعدى بالحرف وعدى السى مفعولين فى قولهم (لا ألوك نصحا) وفى (لا يألونكم خبالا) على تضمين معنى المنع والتقصير .

7 - قوله تعالى : « وما يفعلوا من خير فلن يكفروه » آل عمران (3 - 115) ضمن الكفر معنى الحرمان فعدى الى مفعولين .

8 - قوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالهم السى أموالكم » النساء (4 - 2) ضمن لا تأكلوا معنى لا تضموا .

9 - قوله تعالى : « ولو جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به » النساء (4 - 82) ضمن أذاعوا معنى تحدثوا فعدى بالباء .

10 - قوله تعالى : « وما نحن بتاركى آلهتنا عن تولىك » هود (11 - 53) ضمن الترك معنى الصدور عن الشئ .

11 - قوله تعالى : « ويا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم » هود (11 - 30) ضمن ينصرنى معنى يجيرنى فعدى بمن .

12 - قوله تعالى « وعتوا عن أمر ربههم » الاعراف (7 - 76) أصل معنى عتوا : استكبروا ضمن معنى انحرفوا وانصرفوا فعدى بمن .

13 - قوله تعالى : « أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها » الاعراف (7 - 99) ضمن يهدى معنى يبين ويتضح فعدى باللام .

14 - قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم اتفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض » التوبة (9 - 39) ضمن اثاقلتم معنى ملتم واثقلتم فعدى بالى والمعنى تباطأتم .

15 - قوله تعالى : « ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » التوبة (9 - 121) ضمن يرغبوا معنى يبخلوا .

2 - قرار التعريب : (80)

يجب الخبج أن يستعمل بعض اللفاظ الاعجمية عند الضرورة - على طريقة العرب فى تعريبهم .

3 - قرار المولد : (81)

المولد : هو اللفظ الذى استعمله المولدون على غير استعمال العرب وهو قسمان :

1 - قسم جروا فيه على اتيسة كلام العرب من مجاز أو اشتقاق أو نحوها كاصطلاحات العلوم والصناعات وغير ذلك ، وحكمه أنه عربى سائغ .

2 - وقسم خرجوا فيه على اتيسة كلام العرب اما باستعمال لفظ اعجمى لم تعربه العرب . وقد أصدر المجمع فى شأن هذا النوع قراره ، واما بتحريف فى اللفظ أو فى الدلالة لا يمكن معه التخريج على وجه صحيح ، واما بوضع اللفظ ارتجالا ، والمجمع لا يجيز النوعين الاخيرين فى نصيح الكلام .

(فى الصياغة والاشتقاق) (82)

4 - قرار فعالة الحرفة :

يصاغ للدلالة على الحرفة أو شبيها من أى باب من أبواب الثلاثى مصدر على وزن فعالة بالكسر .

5 - قرار فعلان للتقلب والاضطراب :

يقاس المصدر على وزن فعلان لفعل لازم المفتوح العين اذا دل على تقلب واضطراب .

(80 ، 81) مجلة المجمع ج 1 ص 33 - 34 .
(82) مجلة المجمع ص 34 - 35 ج 1 .

6 - قرار فعال للمرض :

يقاس من فعل اللازم المفتوح العين مصدر
على وزن فعال للدلالة على المرض .

7 - قرار فعال وفعيل للصوت :

إذا لم يرد في اللغة مصدر لفعل اللازم المفتوح
العين الدال على صوت يجوز أن يصاغ له قياسا مصدر
على وزن فعال أو فعيل .

8 - قرار المصدر الصناعي :

إذا أريد صنع مصدر من كلمة يزداد عليها ياء
النسب والتاء .

9 - قرار فعال للنسبة الى الشيء :

يصاغ فعال قياسا للدلالة على الاحتراف او
ملازمة الشيء . فاذا خيف لبس بين صانع الشيء
وملازمه كانت صيغة فعال للصانع وكان النسب بالياء
لغيره فيقال زجاج لصانع الزجاج وزجاجي لبائعه .

10 - قرار اسم الآلة :

يصاغ قياسا من الفعل الثلاثي على وزن مفعل
ومفعلة ومفعال للدلالة على الآلة التي يعالج بها الشيء .

وبوصى المجمع باتباع صيغ المسموع من أسماء
الآلات ، فاذا لم يسمع وزن منها لفعل جاز أن يصاغ
من أي وزن من الأوزان الثلاثة المتقدمة .

11 - قرار الاشتقاق من أسماء الأعيان :

اشتق العرب كثيرا من أسماء الأعيان . والمجمع
يجيز هذا الاشتقاق للضرورة في لغة العلوم ، ومن
أمثلته المنكب فانه مشتق وضع وضعا ثانويا للعضو
الخاص من جسم الانسان والحيوان ، فاذا قيل تنكب
فلان قومه أي أدخل ذراعه فيها وحملها على منكبه
كان فعل تنكب مشتقا من اسم عين هو المنكب لا من
النكوب بمعنى العدول والتحنى ناحية بل المعنى
القاهها على مجتمع الكف والمضد من الجسم . وفي رد

الفعل الى المعنى الاصلى تكلف وركاكة كما يفعل ذلك
من ليس له المام بمبادئ علم اللغات وتاريخ نشأة
البشر والشعوب (83) .

12 - قرار مطاوع فعل الثلاثي :

كل فعل ثلاثي متمد دال على معالجة حسية
مطاووعه القياسي انفعال ما لم تكن فاء الفعل واوا او
لاما او نونا او ميما او راءا ويجمعها قولك ولنمر
فالتقياس فيه انفعال .

13 - قرار مطاوع فعل بتشديد العين :

قياس المطاوعة لفعل مضعف العين تفعل
والاغلب فيما ضعف للتعدية فقط ان يكون مطاوعة
ثلاثية .

14 - قرار مطاوع فاعل :

فاعل الذي أريد به وصف مفعوله بأصل مصدره
مثل باعدته يكون قياس مطاوعه تفاعل كتباعده .

15 - قرار مطاوع فعمل :

فعمل وما الحق به قياس المطاوعة منه على
تفعل نحو دحرجته فتدحرج وجلبيته فتجلبب .

16 - قرار التعدية بالهمزة :

يرى المجمع أن تعدية الفعل الثلاثي اللازم
بالهمزة قياسية .

17 - قرار صيغة استعمل للطلب وللصيورة :

يرى المجمع أن صيغة استعمل تياسية لافادة
الطلب والصيورة .

18 - ملحقات الاصول العامة :

الاول : يفضل اللفظ العربي على العربي القديم
الا اذا اشتهر المعرب .

الثاني : ينطبق بالاسم المعرب على الصورة التي
نطقت بها العرب .

يرى المجمع أن الكلمات التي يستعملها قدامى النحويين والصرفيين وهي : القياس والاصل والمطرذ والغالب والاكثر والكثير والباب والقاعدة الفاظ متساوية في الادلة على ما ينقاس وان استعمال كلمة منها في كتبهم يسوغ للمحدثين من المؤلفين وغيرهم قياس ما لم يسمع على ما سماع وان المقياس على كلام العرب هو من كلام العرب (88) .

ومن البحوث الاخرى التي قدمت الى المجمع في القياس بحث الاستاذ أحمد أمين بعنوان (مدرسة القياس في اللغة) . وقد اتى هذا البحث في الجلسة التاسعة لمؤتمر 3 يناير 1949 وهو بحث لغوي شيق ذو أصالة وعمق ، وقد بداه الاستاذ بنبذة تاريخية عن القياس ثم اشهر علماء المدرسة ، وختم بحثه بفوائد القياس في اللغة (89) .

وقد نوقشت المحاضرة في الجلسة نفسها من قبل الاعضاء ووافق المؤتمر على الاخذ ببدا القياس في اللغة على نحو ما اقره المجمع سلفا من قواعد وجواز الاجتهاد فيها متى توفرت شروطه كما اشار الى ذلك الاستاذ أحمد أمين في محاضراته (90) ولاهية الموضوع تقرر ان ينعقد مؤتمر المجمع للدورة الثلاثين يوم الاثنين الموافق 24 فبراير سنة 1964 لمدة اسبوعين (91)

وفضلا عما ينظره المؤتمر من نماذج معجبية ومصطلحات علمية وحضارية واصول لغوية تقرر ان يطرح على المؤتمر موضوع (القياس في اللغة) وان يقدم الاعضاء العاملون والراسلون بحوثا في نواحيه المختلفة مثل :

- 1 - مذهب القياس في اللغة نشأته وتطوره .
- 2 - القياس النحوي واللغوي .
- 3 - القياس بين البصرة والكوفة .

الثالث : تفضل الاصطلاحات العربية القديمة على الجديدة الا اذا شاعت .

الرابع : تفضل الكلية الواحدة على كلمتين فأكثر عند وضع اصطلاح جديد اذا امكن ذلك . واذا لم يمكن ذلك تفضل الترجمة الحرفية (84) وهناك قرارات للمجمع في دور انعقاده الثاني وهي :

1 - قرار تكملة مادة لغوية ورد بعضها في المعجمات ونحوها ولم ترد بقيتها .

2 - قرار النسبة الى جمع التكرير عند ضرورة التمييز ونحوها .

المذهب البصري يرى في النسب الى جمع التكرير ان يرد الى واحدة ثم ينسب الى هذا الواحد ، ويرى المجمع ان ينسب الى لفظ الجمع عند الحاجة كإرادة التمييز او نحو ذلك .

3 - قرار قياس صيغة مفعلة للمكان الذي يكثر فيه الشيء : تصاغ مفعلة قياسا من اسماء الاعيان الثلاثية الاصول للمكان الذي تكثر فيه هذه الاعيان سواء اكانت من الحيوان ام من النبات ام من الجباد .

4 - قرار قياس صيغة فعال للمبالغة :

يصاغ فعال للمبالغة من مصدر الفعل الثلاثي اللازم والمتعدى (85) . وبعد هذه القرارات استمر المجمع في عقد المؤتمرات اللغوية واستمر الاعضاء في تقديم ابحاثهم ، ومن جملة الابحاث التي قدمت نسي القياس بحث في (جموع التكرير القياسية) للاستاذ أحمد على الاسكندري عضو المجمع (86) وهو بحث لغوي قيم تكلم فيه الاستاذ عن القياس اللغوي وما يقتضيه القياس . وبعد مناقشات تبولت بين حضرات الاعضاء اقرت القرارات الموجودة في القسم الرسمي من المجلة (87) واقر القرار الآتي :

- (84) مجلة المجمع ج 1 ص 37 .
- (85) نفس المصدر ج 2 ص 33 - 35 .
- (86) نفس المصدر ج 4 ص 174 .
- (87) نفس المصدر ص 1 ج 4 .
- (88) نفس المصدر ج 4 ص 186 .
- (89) نفس المصدر ج 7 ص 315 .
- (90) نفس المصدر ج 7 ص 302 ، القرارات العلمية للمجمع .
- (91) نفس المصدر ج 17 ص 237 .

4 - القياس بين الفتهاء والنحاة .

5 - القياس والسماع بين الانصار والخصوم .

6 - اثر القياس في اللغة .

7 - اتيسة اللغة .

8 - مجمع اللغة العربية والقياس .

9 - مدى الحاجة في المصطلحات العلمية الى القياس في اللغة .

وحين مراجعتنا الجزء الثامن عشر من المجلة الذي ييدا بالسنة 1964 لم نعثر على نتيجة القرار ، ولا نعلم ان كانت صدرت فيها بعد . والذي نختم به هذا البحث ان اللغة العربية فيضا زاخرا من المراتة على اصلها ان يفيدوا منه ولا يعطلوه اذ قد ثبت على مر الزمان انها تسبق الباحثين والمستنيطين ولا يعجزونها . وان كل عصر اناد منها على قدر استعداد اهله ومواهبهم ومكانهم وحسبك ان تقابل بين الاصمعي والخليل وقد كانا في زمن واحد وبين ابن خالويه وابن جنى وقد اظلهما عصر واحد ايضا لتمييز مدى ما يفيد ذو الملكة المبدعة الخلاقة من الدائرة الضيقة التي يدور فيها ذو الذهن المقيد . واللغة بعد واحدة والفرص المتاحة ايضا واحدة .

النتائج العامة للبحث :

عرض هذا البحث لاهية القياس في اللغة ، وقد انتهينا منه الى هذه النتائج العامة :

1 - اننا نجد كتب اللغة كثيرا ما تذكر المصادر ولا تذكر افعالها او العكس ، او يذكر الفعل ولا يذكر من اى باب هو ، فالقول بالقياس يمكننا من تكميل هذا النقص بحمل المجهول على المعلوم . فمتى رأيناهم يكترون من المصادر على وزن خاص اذا كان الفعل على وزن خاص في الاعم الاغلب أمكننا ان نقيس ما لم يذكروا على ما ذكروا وان نعهده من كلام العرب وهكذا . وهذا الباب يكمل نقصا كبيرا في المعاجم .

2 - اننا اذا وجدناهم يشتقون وزنا خاصا ويستعملونه للدلالة على شيء خاص أمكننا ان نقيس

عليه ما لم يذكروا . فاذا وجدناهم مثلا يصوغون فعلا للدلالة على محترف الحرفة او المهنة كنجار وحداد ونعال ، أمكننا ان نقيس عليه من أسماء اصحاب المهن والحرف ما لم يذكروه .

3 - الاعتراف بالمولد او الدخيل وعده عربيا وادخاله في معاجنا ما دام يجرى على الصيغ العربية ويسير على نمط العرب في وضعهم او اشتقاقهم مثل كلمة الوزائع وقد استعملها ابن خلدون بمعنى الضرائب التي يوزعها الحاكم على الرعية ومثل : تنذر اذا جاء بالنادرة وتنادر عليه اذا جعله موضع نادرته ، وقد استعملها صاحب الاغانى ، ومثل : المقيدة وهى الدفتر الذى يكتب به الرجل ما يمر به تذكرة لنفسه ومثل مئات الكلمات التي استعملت في العصور المختلفة للدلالة على معان جديدة من مثل ما اثبتته دوزى في معجمه ، فما بالننا لا نثبته في معاجنا قياسا على ما فعل العرب ؟

4 - اننا نجد العرب احيانا يلحظون في الشيء معنى من المعانى فيسمونه باسم مشتق من الكلمة التي تدل عليه ، فقد سموا القارورة قارورة لانهم لاحظوا ان الشيء يقر فيها وسموا الدار دارا لانه يكثر فيها الدوران ، فلماذا لا نستعمل هذا الباب فيما يقابلنا من كثير من الفاظ الحضارة والمصطلحات العلمية الكثيرة التي نقف امامها حائرين ، ولا نشفق من الكلمات العربية كلمات تدل عليها ملاحظين ما نلحه من معنى فيها ؟

5 - وهناك باب اخطر من ذلك واجرا وهو التفهم في عمق واناة كيف وضع العرب لغتهم ؟ فنرى مثلا ان العرب كان لها ذوق مرهف في وضع الكلمات استنادا الى محاكاة الاصوات تارة بتقليدها كما سموا صوت الماء خريرا وصوت الحجر صكا وصوت الريح هبوبا والصفدع نقيقا واللبن درا والمريض انينا . الخ محاكاة هذه الاصوات التي هى او يتخيلون انها من صوت هذه الاشياء ثم صاغوا من هذه الاسماء افعالا ثم توسعوا في الاشتقاق منها للدلالة على ما يشبهها وما يقرب منها .

فاللغة عند حدوثها الاول كانت اصواتا يحدثها المتكلم حاكيا للاصوات المسموعة ثم صارت تلك الاصوات المحبكة علامة لما يسمع بالاذن او يبصر

بالمعين أو يلمس باليد أو يشم بالانف أو يعقل بالعقل .

وعند تحرى هذا الباب نراهم يحاكون أولا صوت المسموع بالأذن ثم ينقلونه الى المبرصر بالعين ثم ينقلونه الى المحسوس بياقى الحواس الخارجية ثم الى المعقول بالعقل ، فمثلا لو نظرنا الى كلمة حسن وتتبعناها وجدنا ان المصدر الاصلى لحسن كان صوتا سينيا تخيلوا انه يسمع عند الحسن اى عند المس باليد ثم انتقلوا من الاحساس باليد الى الاحساس بغيرها فسموا كل ما يشعر به محسوسا وسموا الآلات التى يحس بها حواس ثم اطلقوها على العلم الحادث من الحواس وعلى اليقين الحاصل من العلم بها واشتقوا أحس بالشيء اذا ادركه بحاسته ونقلوه الى أحسست بالشيء اى ايقنت به ، ولو تتبعت المادة لوجدتها كلها من هذا القبيل مندرجة على نحو ظريف ، ثم نوعوا هذا الصوت السيني فجعلوه مرة حسا ومرة لمسا ومرة حسا . ولو تقصينا هذا الباب على هذا النمط لامادنا نائدة كبرى ولدلنا على ان مصادر اللغة التى تحاكي الاصوات فى منبعها الاول كانت مصادر محصورة تعد بالعشرات ، فان توسعنا قليلا قلنا بالمئات ، ثم تضخمت هذه المصادر بالاشتقاق الصغير والاشتقاق الكبير على مدى الزمان وعلى حسب ما يجد من المعانى وما يقرب من المصادر الاصلية وهو باب يفيدنا عند ما يفسر اصحاب المعاجم او المفسرون للقرآن الكريم والحديث الشريف والنصوص الادبية اللفظ بتفسيرات مختلفة فنستطيع به ان نرجح قولا على قول ورايا على راي كما نستفيد منه استكشاف بعض الاغلاط التى وردت فى معاجم اللغة . ومنشؤها خطأ فى النقل او تصحيف فى الكتابة او نقل عن الشخ او نحو ذلك ، واذا كان ابن جنى قد سمي ما استكشفه الاشتقاق الكبير فيصح ان نسى هذا الضرب : الاشتقاق الاكبر .

وتارة كانوا يلحظون ما بين الحرف والمعنى من مناسبة كما لاحظوا ان الحاء اذا اتت فى آخر الكلمة دلت على الاتساع والانتشار مثل ساح وباح وصاح وناح وشرح ومرح . والكلمة المبدوءة بالشين على

التشتت والافتراق مثل شنتت وشطر وشعت وشع . الخ . والكلمات المبدوءة بالفين على الفموض مثل غمض وغابت الشمس وغبش الليل وغار الماء وغطى الشيء . الخ . وقد فطن بعض كبار اللغويين الى هذا الامر ونبهوا عليه كما يفعل الزمخشري كثيرا فى تفسيره .

وهذا الامر وان لم يصرح العرب به فقد كان مركزا فى طبيعتهم مندسا فى اذواقهم يعتمدون عليه فى وضع الكلمات والاشتقاق منها ، فمن بلغ من قوة الحس مبلغهم ومن دقة الملاحظة دقتهم كان له بمقتضى القياس مثل ما لهم .

ولكن من الذى يجوز له القياس فى اللغة ؟ اننا اذا قلنا بجوازه لكل فرد كان الامر فوضى وتعرضت اللغة للاضطراب ولكننا نقول كما قال الفقهاء ونحذو حذوهم ، ففى عصورهم الزاهية كان الاجتهاد وكان البحث فى المجتهد والقول فى شروطه ، وحصروا قياس الاحكام وتقديم العدالة وصحة الحكم فى يد المجتهدين وشروطوا للمجتهد شروطا تتلخص فى ان يكون محيطا بمدارك الشرع متمكنا من وسائل النظر فيها والاستنباط منها ، وعلى الجملة يكون فضلا عن مواهبه الذهنية مثقفا ثقافة شرعية وما يلزمها من ثقافة لغوية ونحوية . الخ .

وعلى هذا القياس يجب ان نقول فى المجتهد اللغوى ، فلا بد ان يكون مثقفا ثقافة لغوية وادبية واسعة متمكنا من النحو والصرف لانها وسائل من وسائل اتقان اللغة وفوق ذلك ان يكون له ذوق قد ارفه بكثرة القراءة اللغوية والادبية ومعرفة بسر الوضع على النحو حتى يستطيع ان يدرك بحسه الذى كونه الثقافة وعلبه العميق الجيد من الرديء وما يصح وما لا يصح ونحو ذلك . كما يستطيع بهذه المؤهلات كلها ان يتخير اللفظ المناسب للمعنى المناسب اما بوضع جديد او اشتقاق من لفظ قديم ، فاذا بلغ هذا المبلغ كان له الاجتهاد اللغوى كما كان لنظيره الاجتهاد الفقهي .

مصادر البحث :

مرتبة على حروف الهجاء

- 1 - ادب الكاتب ، ابن قتيبة ، مطبعة السعادة (1958) ط 3 .
 - 2 - الاقتراح ، جلال الدين السيوطي ، حيدر آبار ط 2
 - 3 - الاقتضاب في شرح ادب الكتاب ، ابن سيد البطليوسي ، المطبعة الادبية بيروت (1901)
 - 4 - الانصاف في مسائل الخلاف ، ابو البركات ابن الانباري ، القاهرة (1961)
 - 5 - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، السيوطي ، القاهرة (1965) ط 1
 - 6 - البيان في تفسير القرآن ، ابو القاسم الخوئي ، النجف (1966) ط 2
 - 7 - تفسير فخر الدين الرازي ، اسلامبول 1307 هـ
 - 8 - حاضر اللغة العربية في الشام ، سعيد الانغاني
 - 9 - خزنة الادب ، عبد القادر البغدادي ، المطبعة السلفية ، القاهرة .
 - 10 - الخصائص ، ابن جنى ، دار الكتب المصرية ط 2
 - 12 - شرح ابن عقيل ، القاهرة (1965) ط 14
 - 13 - الصحابي في فقه اللغة ، احمد بن فارس ، القاهرة (1910) .
 - 14 - في اصول النحو ، سعيد الانغاني ، دمشق (1964) .
- 15 - في النحو العربي ، نقد وتوجيه ، الدكتور مهدي المخزومي ، القاهرة (1966) ط 1 .
 - 16 - القاموس المحيط ، الفيروزابادي .
 - 17 - القرآن الكريم
 - 18 - قواعد التحديث من فن مصطلح الحديث ، دمشق ، مطبعة ابن زيدون (1935) .
 - 19 - لسان العرب ، ابن منظور ، بولاق 1301 هـ
 - 20 - اللغة ، ج . فندريس ، ترجمة القصاص والدواخلي ، القاهرة (1950)
 - 21 - مجلة المجمع العلمي بدمشق ، المجلد " بع عشر
 - 22 - مجلة مجمع اللغة العربية ، المجلدات (1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 7 ، 17 ، 18)
 - 23 - مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ، مهدي المخزومي (1958) ط 2
 - 24 - معجم الادباء ، ياتوت الحموي ج 12 مطبعة دار المؤمن
 - 25 - المعجم المفهرس ، محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب (1945) ط 1
 - 26 - مغنى اللبيب ، ابن هشام الانصاري ، بيروت ، دار الكتاب العربي
 - 27 - من اسرار اللغة ، ابراهيم انيس
 - 28 - النحو الوافي ، عباس حسن ج 3 ، دار المعارف بمصر (1961)
 - 29 - وفيات الاعيان ، ابن خلكان ، القاهرة (1948) ط 1 .

اللغة العربية واللغة اللاتينية (مقارنة تاريخية)

المرحوم - الأستاذ ساطع الحمري

لغات علم وأدب . بعد أن كانت بمثابة (لغات عامية) مدة غير قصيرة من الزمن . وأما اللاتينية الاصلية فقد اندثرت وماتت : بعد أن كانت هي لغة الادب والعلم في معظم بلاد الغرب ، مدة قرون عديدة .

«فلا بد أن يحدث مثل ذلك في اللغة العربية أيضا . فمن العبث أن تبذل الجهود لتأخير هذا المصير . بل من الخير لنا أن نؤمن بذلك من الآن . فنوجه جهودنا الى جعل (العامية) لغة الكتابة والعلم والادب ، بوجه عام ...»

إن أمثال هذه الملاحظات تسيطر على أذهان الكثيرين ممن يقولون بوجوب عدم التمسك بالعربية الفصحى ، وهي تظهر من خلال احاديثهم وكتاباتهم بأشكال وأسباب شتى .

ولهذا السبب .. أعتقد بأن بحث قضية الفصحى والعامية يجب أن يبدأ بدراسة هذه (الحجة الاساسية) . يجب علينا ان نلقي نظرة فاحصة على تاريخ اللغات

ان قضية الفصحى والعامية في اللغة العربية ، لمهي من القضايا التي تثار من حين الى حين ، منذ عدة عقود من السنين .

يشيرها - على الاكثر - بعض الذين يدعون الى التخلي عن الفصحى . والتحول عنها الى العامية . في الكتابة والخطابة والحوار . ولاسيما في القصص والمسرحيات . ويستند هؤلاء في دعوتهم هذه الى ملاحظات عديدة ومتنوعة اهمها واعمها - على ما أعتقد - يحوم حول تشبيه العربية باللاتينية .

انهم يقولون : «ان حالة العربية الفصحى الآن . لا تختلف عن حالة اللاتينية الكلاسيكية قديما . فمصيرها شبيه بمصير اللغة المذكورة حتماً . من المعلوم ان اللاتينية ماتت . بعد أن ولدت اللغات الفرنسية والابطالية والاسبانية والبرتغالية والرومانية .. التي تعرف الآن باسم (اللغات اللاتينية) . وهذه اللغات أصبحت منذ عدة قرون

وبهذه الصورة —وبهذه الصورة وحدها — نستطيع أن نصل الى نتيجة علمية ، في هذه القضية الهامة .

تفرع اللغة اللاتينية

— 1 —

ان اللاتينية كانت في بادىء الامر لغة خاصة بمدينة روما وضواحيها المعروفة باسم (لاتينيوم Latinium) ، ثم أصبحت لغة ايطاليا باجمعها ، بسبب توسع حكم الرومان فيها .

وبعد ذلك انتشرت الى جميع البلاد المحيطة بالبحر الابيض المتوسط . مع الفتوحات التي تمت في عهد الامبراطورية .

وكان لاهالي تلك البلاد الشاسعة لغات خاصة بهم ، مثل اليونانية . والآرامية . والعربية ، والقبطية ، والغوتية . والبربرية . والغالية . والايبيرية ، والليغورية . والسلتية... الخ...

وعندما دخلت اللاتينية تلك البلاد ، مع الجيوش والحكام . بدأ نوع من التنازع والتفاعل بينها وبين اللغات الدارجة في البلاد المفتوحة . واما نتائج هذا التفاعل والتنازع . فقد اختلف باختلاف اللغات والاقطار .

في الشرق لم تستطع اللاتينية ان تغلب على اليونانية . لان اللغة المذكورة كانت مقترنة بحضارة أرقى من حضارة الرومان ، وبأدب أرفع من الأدب اللاتيني . ولذلك أثرت في اللاتينية أكثر مما تأثرت بها . فحافظت البلاد اليونانية على شخصيتها اللغوية . على الرغم من خضوعها لحكم الرومان وسيطرتهم السياسية .

ومن المعلوم ان ذلك كان من جملة العوامل التي أدت إلى انشطار الامبراطورية الرومانية الى شطرين : الامبراطورية الشرقية والامبراطورية الغربية . حيث

اللاتينية ، لكي نستطيع ان نحكم —بطريقة علمية سليمة هل تشبه حالة اللغة العربية الآن حالة اللاتينية قديماً؟ وهل سيكون مصيرها شبيهاً بمصير اللغة اللاتينية حتماً؟

لاشك في ان اللغات الفرنسية والاطالية والاسبانية والبرتغالية والرومانية .. قد تفرعت من اللغة اللاتينية .

وصحيح أنها كانت —في بادىء الامر— لغات عامية ، ثم تحولت —تدريجياً— الى لغات علم وايدب راقية .

وصحيح أيضاً ، أن اللاتينية الكلاسيكية ، قد فقدت الحياة ، حيث لم يبق على وجه البسيطة امة او شعب يتكلم بها هذه كلها من الحقائق الثابتة ، التي لا يمكن لاحد أن ينكرها ، بوجه من الوجوه .

ولكن ... هناك حقائق اخرى ، لا بد من اخذها بنظر الاعتبار في هذا المضمار .

ان اللغات التي تفرعت عن اللاتينية لم تنحصر باللغات التي ذكرناها آنفاً . بل قد تفرعت عن اللاتينية عشرات اللغات ومئات اللهجات ، إلا أن معظم هذه اللغات واللهجات لم تعش الى يومنا هذا ، بل تركت محلها الى اللغات اللاتينية المتداولة الآن . وكل واحدة منها قد قامت مقام عدد غير قليل من اللغات واللهجات المندثرة .

وفهم من ذلك : ان تطور اللغات يعرض الى الانظار نوعين من التطورات : التطور نحو التفرع ، والتطور نحو التوحد . ويسمي الباحثون الطور الاول (طور التجزؤ mercellement) والطور الثاني (طور التوحد : réunification)

إن من يحصر نظره في النوع الاول من التطورات . فلا ينتبه الى النوع الثاني منها .. يبقى بعيداً عن إدراك الحقائق على وجهها الصحيح ، بعداً كبيراً .

فيجدلر بنا ان ندرس صفحات تطور اللغات اللاتينية . لنطلع على أطوار (التجزؤ) وعوامله من ناحية . وأطوار (التوحد) وعوامله من ناحية اخرى .

اللغة الرسمية (اليونانية) في الشرقية . وظلت (اللاتينية) في الغربية .

وأما في الغرب – في البلاد التي تعرف الآن باسم فرنسا واسبانيا وبريطانيا العظمى – فقد حدث عكس ذلك تماما : تغلبت اللاتينية على لغات البلاد المفتوحة ، لان تلك اللغات كانت محرومة من أدب مدون ومكتوب : كما أنها كانت غير مدعومة بحضارة راقية .

ولكن هذه الغلبة لم تتم إلا بعد تفاعل وتنازع استمر نحو خمسة قرون ، ومن الطبيعي ان اللاتينية تأثرت خلال هذه المدة الطويلة بخصائص تلك اللغات . وتغيرت عن اصلها في كثير من الامور .

* * *

كانت اللاتينية قد ارتقت كثيراً . فأصبحت لغة أدب رفيع جداً . بفضل الخطباء والشعراء والعلماء الذين نبغوا في عهد الامبراطورية الزاهر . أمثال شيشرون ، وفيرجيل . ولوكرس ...

ولكن هذه اللاتينية الادبية – اللاتينية الكلاسيكية – كانت بمثابة لغة أريستوقراطية . لا يمارسها ولا يحسنها إلا النخبة الممتازة من الحكام والادباء والمتورين . إنها لم تغفل كثيراً بين طبقات العوام . وظل الناس يتكلمون بلهجات لاتينية بسيطة ، كان الرومان يميزونها عن اللاتينية الكلاسيكية ، ويسمونهم بأسماء خاصة . مثل : كلام العوام ، اللغة الدارجة ، لغة الفلاحين .

sermo vulgaris
linga usualis
lingum rusticum

ان الفتوحات الرومانية كانت تنشر اللاتينية الكلاسيكية واللاتينية العامية في وقت واحد : الكلاسيكية مع الحكام والمتورين والعامية بواسطة الجنود والتجار والفلاحين الذين استوطنوا البلاد المفتوحة ، وصاروا يعيشون ويعملون بين أهاليها الاصليين .

ومن الطبيعي أن اللاتينية الكلاسيكية بقيت خلال هذا الانتشار كما هي : بمفرداتها وقواعدها الصرفية والنحوية المدونة في الكتب . ولكن اللاتينية العامية لم تسلم من التغيير والتحول . لانها كانت تنتقل وتنتشر عن طريق المشافهة وحدها ، فكان من الطبيعي ان تتأثر خلال هذا الانتشار بخصائص اللغات المحلية القديمة ، ولا سيما من اساليبها الصوتية .

ومما تجب ملاحظته في هذا المضمار : أن اللغات الدارجة في البلاد المفتوحة التي ذكرناها آنفاً . كانت كثيرة ومتنوعة ومتشعبة الى عدد كبير من اللهجات . فكان من الطبيعي ان يؤدي تفاعل اللاتينية العامية مع كل واحدة من هذه اللهجات واللغات المحلية . في تلك الاقاليم المتنوعة . الى تكوين لغات ولهجات عديدة . تختلف عن اللاتينية الاصلية . في كثير من الخصائص .

ولهذا السبب : يرجح الباحثون تسمية هذه اللغات واللهجات الجديدة بالـ (الرومانية) تمييزاً لها عن اللاتينية الاصلية .

— 2 —

ولكن .. هذه اللغات الرومانية الجديدة لم تكذب تغلب على اللغات المحلية فستقر – نوعاً ما – على حالات واساليب معينة . حتى تعرضت الى عوامل قوية من التحولات والتغيرات الجديدة : إذ دخلت البلاد المذكورة لغات جرمانية عديدة . من جراء استيلاء القبائل الجرمانية عليها ، واستيطان عدد غير قليل من القبائل المذكورة في مختلف أقطارها .

ومن الطبيعي . أن قام عندئذ تفاعل وتنازع بين اللغات واللهجات الجرمانية التي كان يتكلم بها الغزاة والمهاجرون . وبين اللهجات الرومانية التي كان يتكلم بها أهالي البلاد .

واما نتائج هذا التنازع الجديد . فقد اختلفت – هي

أيضاً - باختلاف البلاد : فني بريطانيا العظمى وبريطانيا الصغرى تغلبت اللغات الجرمانية على الرومانية ، واصبحت تلك البلاد جرمانية اللغة . ولكن في سائر أقاليم فرنسا واسبانيا واطاليا - بعكس ذلك - تغلبت اللغات الرومانية على الجرمانية ، حيث نسي الفاتحون والمهاجرون - بمرور الزمان وبالتدرج - لغاتهم الاصلية ، وصاروا هم أيضاً يتكلمون باللغات الرومانية . مثل أهل البلاد التي فتحوها وهاجروا إليها .

ولكن ذلك لم يتم ، إلا بعد مرور نحو ثلاثة قرون .

ومن الطبيعي أن يكون قد حدث خلال هذه المدة تفاعل بين لغات الفاتحين ولغات البلاد المفتوحة . ولذلك تأثرت الرومانية بعض التأثير بخصائص اللغات الجرمانية ، فازدادت بذلك تباعداً عن اللاتينية الاصلية .

ومما يجب ألا يعزب عن البال في هذا المضمار : ان اللغات الجرمانية التي دخلت مع القبائل الغازية المعلومة ، الى مختلف أقطار البلاد التي تعرف الآن باسم ايطاليا وفرنسا واسبانيا .. كانت متنوعة ومتشعبة في حد ذاتها . فتفاعل هذه اللغات واللهجات الجرمانية المختلفة مع اللغات الدارجة في مختلف أنحاء البلاد المذكورة . كان من الطبيعي أن يؤدي الى زيادة أنواع اللغات واللهجات المنحدرة من اللاتينية زيادة كبيرة .

إن غزوات القبائل الجرمانية للبلاد المذكورة أثرت في مصير اللغة اللاتينية . من وجوه اخرى أيضاً : ان هذه الغزوات أدت الى حدوث تطورات وانقلابات اجتماعية وسياسية هامة . فكان من الطبيعي أن تتأثر اللغات من هذه الانقلابات تأثيراً عميقاً .

إذ من المعلوم أن الغزوات الجرمانية أدت - في آخر الامر - الى انقراض الامبراطورية الرومانية الغربية

وزوالها ، كما أنها سببت تقلص الطبقة المتعلمة والمستنيرة وتلاشيها بسرعة كبيرة .

ومن الطبيعي أن زوال الوحدة السياسية من جراء سقوط الامبراطورية : قد حرم اللاتينية الكلاسيكية من السلطة المعنوية التي كانت تتمتع بها ، لكونها لغة الحكم والادارة في امبراطورية واسعة الارحاء . كما أن تلاشي الطبقة المستنيرة التي كانت تمارس اللاتينية الادبية وترعاها أدى الى تقلص ظل اللغة المذكورة الى أقصى حدود التقلص ، وجعلها تنحصر بين جدران المعابد والاديرة وحدها .

ولا حاجة للبيان ان انسحاب اللاتينية الادبية من الميدان انسحاباً يكاد يكون تاماً ، على المتوال الذي سردناه آنفاً ، ترك الحبل على غارب اللغات العامية ، وفسح امامها مجالاً واسعاً للتغير السريع ، والتفرع الذي لا يقف عند حد ، لعدم وجود عائق يعوقه . وضابط يضبطه .

ان انضمام هذه العوامل الهامة الى عامل التحول والتفرع التي سردناها قبلاً . أدى بطبيعة الحال الى زيادة تباعد اللغات واللهجات الرومانية : عن اللاتينية الاصلية زيادة كبيرة جداً .

في الواقع ان (شارلمان) الشهير . قد سعى في القرن التاسع للميلاد الى إحياء الامبراطورية . وتشجيع التعليم . إلا أن الامبراطورية التي كونها لم تعمر طويلاً ، لانه هو بنفسه قسمها بين اولاده الثلاثة . وفتح بذلك الباب للتقسيمات المتوالية بين أحفاده العديدين . ومن المعلوم انه بعد ذلك العهد القصير ، اخذت روابط السلطات المركزية ترتخي بسرعة ، ثم نشأت النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخاصة التي عرفت باسم (الاقطاعية) «الفيو داليتية» . فانقسمت البلاد الى عدد لا يحصى من المقاطعات الصغيرة ، وصارت تحتمي كل واحدة منها بقصر محصن ، وتتمتع باستغلال فعلي مطلق .

هذا ، وإلتزام بحث الاحداث والعوامل التي أثرت في تطور اللغة اللاتينية وقرعها ، لا بد لنا من أن نلقي نظرة عجل على عمل الديانة المسيحية في هذا المضمار أيضاً .
لا شك في ان الديانة المسيحية ساعدت على انتشار اللغة اللاتينية في اوربا الغربية مساعدة كبيرة .

لان المركز الاوربي للديانة المذكورة كان مدينة روما نفسها : أنها تنظمت هناك ، وانتشرت من هناك ، كما أن الاناجيل التي تجمعت هناك وانتشرت من هناك الى البلاد الغربية كانت بالنصوص اللاتينية ، فكان من الطبيعي -والحالة هذه- ان ترتبط الديانة المسيحية في تلك البلاد باللغة اللاتينية ارتباطاً وثيقاً ، وأن تساعد على انتشارها مساعدة كبيرة .

إلا أن الديانة المسيحية لم تلتزم بنشر اللاتينية الكلاسيكية ، بل عملت على نشر اللاتينية العامية . وذلك لانها انتشرت -في بادئ الامر- بين عوام الناس ، دون الخواص . لان الحكام كانوا يعارضونها أشد المعارضة : حتى انهم ظلوا يضطهدون معتقبيها بشتى أساليب الاضطهاد ، مدة تزيد على ثلاثة قرون . فكان من الطبيعي أن يخاطب المبشرون الناس باللغة الدارجة بينهم ، لا باللاتينية الادبية التي كانت شبه غريبة عليهم .

ومما يجب ملاحظته في هذا الشأن أن المذهب الكاثوليكي الذي نشأ في إيطاليا ، وانتشر منها الى غرب اوربا ، كان يلقي مهمة تلاوة الكتاب المقدس على عواتق رجال الدين وحدهم . وما كان يفرض ذلك على سائر الناس بوجه من الوجوه . ولهذا السبب لم تؤثر لغة الانجيل في كلام الناس تأثيراً يذكر ، بل بقيت اللغة المذكورة كلغة خاصة برجال الدين .

حتى أن المجمع الديني الذي انعقد في مدينة (تور) سنة 814 اتخذ قراراً صريحاً في هذا الشأن ، فأوصى : «تفهيم كلام الله الى الناس باللغات التي درجوا عليها» .

فلا ترتبط بالمملكة او بالامبراطورية إلا بروابط اسمية بحث ، ثم اخذت الروابط التي تصل هذه المقاطعات بعضها ببعض أيضاً ترتخي فتزول بصورة تدريجية ، الى ان اصبحت كل مقاطعة وكل مدينة منطوية على نفسها ، ومكتفية بذاتها ، ومنعزلة عن غيرها انزالاً يكاد يكون تاماً .

ومن المعلوم ان الامية تفتت في ذلك العهد تفتتاً لم يسبق له مثيل فلم يبق من يعرف القراءة والكتابة حتى بين كبار اصحاب المقاطعات وطبقة الحكام والنبل . واصبحت الكتابة والقراءة مما يختص به جماعة من رجال الكنائس وحدهم .

ولا حاجة الى القول : ان كل ذلك أوصل تفرع اللغات واللهجات العامية الى حده الاقصى .

* * *

إن العوامل التي ذكرناها الى الآن ، كانت عوامل عامة ، تشمل جميع البلاد التي عرفت باسم (اللاتينية) . وإلتزام سلسلة هذه العوامل المتنوعة لا بد لنا من أن نشير الى عامل آخر ، اختص بقسم من تلك البلاد ، دون غيرها هذا العامل الخاص هو تأثير اللغة العربية في اللغة الاسبانية ، من المعلوم أن العرب كانوا استولوا على اسبانيا واستوطنوها ، وأسسوا فيها حضارة راقية ، استمرت مدة طويلة ، تقرب من ثمانية قرون . فكان من الطبيعي ان تؤثر اللغة العربية -خلال هذه المدة الطويلة- في اللغة الاسبانية تأثيراً كبيراً . فاقتبست الاسبانية من اللغة العربية بعض الأصوات التي لم يكن في الاسبانية ما يماثلها . كما اقتبست آلاف الكلمات العربية التي تختلف عن الكلمات اللاتينية اختلافاً جوهرياً من وجوه عديدة .

ولا حاجة الى البيان ان ذلك أدى الى زيادة الفوارق التي كانت حدثت بين الاسبانية وسائر اللغات اللاتينية زيادة كبيرة .

وهذه اللغات واللهجات وصلت الى حدود التعدد والتنوع خلال القرون الوسطى ، من جراء تأسيس النظم الاقطاعية في مختلف أنحاء البلاد ، وتفشّي الامية بين الخواص فضلا عن العوام ، وتساؤل الاتصال بين مختلف المقاطعات ، وانطواء المدن على نفسها حول القصور المحصنة التي شيدت في كل الجهات ...

تكون اللغة الفرنسية

ولكن ... بعد جهود التفرع والتجزؤ التي استمرت بهذه الصورة مدة تزيد على عشرة قرون ، وقعت احداث سياسية واجتماعية وفكرية اخرى ، عملت عكس ما عملته الاحداث السالفة ، فأدت الى (توحد) اللغات واللهجات حول مراكز عديدة ، بصورة تدريجية .

إني لا أرى لزوماً لتتبع (تيارات التوحد) التي اخذت ترسم في جميع البلاد اللاتينية بعد أدوار التجزؤ التي استعرضتها وشرحتها آنفاً ، بل سأكتفي بذكر ما حدث في فرنسا وحدها .

يجمع علماء اللغة على أن اللهجات الرومانية التي نشأت فوق أراضي فرنسا الحالية قد تجمعت في صنفين أساسيين : اللهجات الشمالية واللهجات الجنوبية ، ويسمون الاولى (لهجات الأوبل) والثانية (لهجات الاوك). وذلك بالنسبة الى الكلمة التي تستعمل في كل منهما بمعنى (نعم) وهي (أوبل) في الشمال و (أوك) في الجنوب .

اللغة الفرنسية تمثل أرقى الدرجات التي وصلت اليها لهجات (الأوبل) والبروفنسية تمثل أرقى لهجات (الأوك) والفرق بين الاثنين كبير جداً ، إذ يقول العالم اللغوي المشهور (ميه) انه يعادل الفرق الموجود بين اللغة الاسبانية واللغة الايطالية . وطبيعي ان هذا الفرق الكبير لا يترك مجالاً للتخاطب والتفاهم بين أصحاب اللغتين دون اسة خاصة أو وساطة ترجمان .

ولذلك نستطيع ان نقول ان الكنيسة المسيحية احتفظت باللاتينية الادبية لنفسها ، ونشرت بين الناس اللاتينية العامية وحدها .

ومن المعلوم أن فكرة «وجوب تلاوة الانجيل من قبل جميع الافراد» لم تظهر الى عالم الوجود الا بعد ظهور البروتستانتية ، في القرن السادس عشر للميلاد. ولكن حتى ذلك التاريخ كانت فروع اللاتينية قد تباعدت عن أصلها كثيراً ، وكونت عدة لغات ادبية راقية جدا . كما ان اللغات الجرمانية أيضاً كانت خرجت عن اطوار البدائية ، وانتجت آثاراً ادبية هامة . ولهذا السبب نجد أن فكرة «وجوب قراءة الانجيل من قبل جميع الناس» اقترنت بفكرة «ترجمة الانجيل الى اللغات الدارجة بين الناس». وهذه الفكرة استوجبت -على الفور- ترجمة الانجيل الى الالمانية والفرنسية والانكليزية ... ولهذا السبب فقدت اللاتينية -بعد ظهور البروتستانتية- الشيء الكثير من مكانتها ، حتى بين رجال الدين أنفسهم ..

وخلاصة القول : ان الكنيسة المسيحية «حافظت» على اللاتينية الادبية ، إذ نشرتها بين رجالها ، ولكنها لم تعمل على نشرها بين الناس ، فتركت بذلك أمام اللغات واللهجات العامية ، مجالاً واسعاً للتنوع والتفرع والانتشار.

* * *

يتبين من كل ما سبق : أن سلسلة طويلة ومعقدة من الاحداث والعوامل التاريخية -السياسية والاجتماعية والفكرية- تضافرت على تفريع اللغة اللاتينية الى فروع كثيرة ، وادت الى تباعد هذه الفروع بعضها عن بعض من ناحية ، وعن اللاتينية الاصلية من ناحية اخرى .

وخلال هذه الاحداث التي بدأت قبل الميلاد ، واستمرت حتى القرن الثاني عشر للميلاد- تمايزت وتخالفت اللغات الرومانية التي تكونت على أراضي كل من فرنسا وايطاليا واسبانيا ، كما أنها تشعبت الى عدد كبير من اللهجات .

واما سبب حدوث هذا الاختلاف الكبير فيعود الى الاختلاف في (نسبة تأثير) كل من اللاتينية والجرمانية في شمال فرنسا وجنوبها .

ان اللهجة التي انحدرت منها اللغة الفرنسية كانت في بادئ الامر لهجة خاصة بالمنطقة التي تحيط بمدينة باريس الحالية .

ومن المعلوم ان المنطقة صارت مهذاً للأسرة السنيّ أسست المملكة الفرنسية . ولذلك اكتسبت لهجتها مكانة سياسية وادبية خاصة ، فأخذت تتغلب على اللهجات الاخرى تبعاً لتوسع نطاق حكم الاسرة المذكورة ...

ان تغلب وانتشار الفرنسية قد تم بسهولة نسبية في مناطق لغات الاوبل ، ولكنه تأخر كثيراً في مناطق لغات الاوك ...

ومن الغريب ان اللغة البروفنسية قد نمت وازدهرت قبل ازدهار الفرنسية ، والادب البروفنسي اشتهر قبل اشتهار الادب الفرنسي ، لان الفنانين الذين عرفوا باسم (التروبادور) كانوا ينظمون أشعارهم ويلحنونها . وبغنونها باللغة البروفنسية .

ولكن حرمان تلك البلاد من حكومة مركزية قوية . ولا سيما تعرضها للحروب الدينية الدموية كان من العوامل التي حالت دون استمرار هذا الازدهار ...

وخلال هذه القرون العديدة كانت الفرنسية خرجت من طور (اللغة العامية) وتحولت الى لغة كتابة وادب .

ثم أخذ هذا الادب يزدهر بعد بدء عصر النهضة والانبعث ولاسيما خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد . حيث نشأ ونبغ طائفة من الابداء العظام . الذين كتبوا وألقوا بها مجموعة كبيرة من الآثار الخالدة .

لكن .. من المؤكد -بعكس ذلك- انه في عصر الادب الكلاسيكي الزاهر ، وحتى في خلال القرن الثامن

عشر ، كان معظم الفرنسيين يרטنون باللهجات كثيرة ، تختلف عن اللغة الادبية بخصائص عديدة .

حتى أن قضية اللهجات استرعت اهتمام رجال الثورة العظمى ، في اواخر القرن الثامن عشر ، وحملتهم على التفكير فيها تفكيراً جدياً انتهى بهم الى اتخاذ تدابير عديدة لمعالجة مشكلتها معالجة مثمرة .

كان الراهب غريغوار قدم الى مجلس الثورة سنة 1790 تقريراً مسهباً عن حالة اللغة الفرنسية ، وكان مما قاله في التقرير :

«انا نستطيع ان نؤكد -دون مغالاة- بأن نحو ستة ملايين من الفرنسيين -ولاسيما في الارباف- لا يعرفون شيئاً عن اللغة القومية . وعددأ لا يقل عن ذلك -اذا عرفوا شيئاً منها- فانهم لا يستطيعون أن يواصلو التحدث بها» .

هذا . ولكي تقدر دلالة هذه الارقام حق قدرها ، يجب أن نلاحظ أن مجموع سكان فرنسا في ذلك التاريخ كان نحو خمسة وعشرين مليوناً على أكبر تقدير . ويفهم من ذلك أن نصف سكان فرنسا ماكانوا يتكلمون بالفرنسية .

وفضلاً عن ذلك أضاف التقرير الى ماسبق . من العبارات : «والذين يحسنون التكلم بها بفصاحة لا يتجاوزون الثلاثة الملايين . وأما الذين يستطعون كتابتها على وجه الصحة فهم أقل من ذلك أيضاً»

(فهب مجلس الثورة لتدارك الحال واتخذ ما أمكنه من التدابير و منها أنه أصدر بياناً كان مما جاء فيه) : «أيها المواطنين .

فليدفع كلا منكم تسابق مقدس للقضاء على اللهجات في جميع أقطار فرنسا» . . لان . . «تلك اللهجات إنما هي من بقايا عهود الاقطاع والاستعباد» .

(وظفقت السلطة الفرنسية من ذلك التاريخ حتى هذا اليوم تحارب اللهجات العامية بكل الوسائل : التعليم .

كل هذا على الرغم من جميع الاحداث والسعوامل التي ذكرناها آنفاً ، وعلى الرغم من جميع الجهود التي بذلت منذ أجيال عديدة .

ويتبين من كل ماسبق :

أن رجال الفكر والسياسة في فرنسا لم يقولوا : فلندع الناس يتكلمون باللهجات التي ألفوها ، بل قالوا : يجب أن نقضي على هذه اللهجات .

ورجال القلم والأدب لم يقولوا : فلنكتب باللهجات الدارجة بين الناس ، بل قالوا : لنسح إلى رفع لغة الحوار والكلام إلى مستوى لغة الكتابة والأدب

والا لما تقلمت اللغة الفرنسية تقدمها المعلوم ، ولما كتبت بها الآثار الكلاسيكية الخالدة ولاظهر إلى عالم الوجود شيء من الادب المعاصر الزاهر

الفوارق الاساسية

بين تاريخ اللاتينية وتاريخ العربية

- 1 -

بعدما استعرضت وشرحت الاحداث والعوامل التي تضافرت على تفريع اللغة اللاتينية إلى فروع كبيرة ، وعلى تباعد هذه الفروع بعضها عن بعض من ناحية ، وعن اللاتينية الاصلية من ناحية أخرى

أعتقد بأن القراء قد أدركوا على الفور الفوارق العظيمة التي ميزت تاريخ اللغة العربية عن تاريخ اللغات اللاتينية ، من وجهة هذه العوامل والاحداث :

أ) فان اللغة العربية بعد أن استقرت في العالم العربي الحالي . . . لم تتعرض إلى هجمات وغزوات لغات جديدة ، كما تعرضت إليها اللغات الرومانية ، من جراء استيلاء القبائل الجرمانية واستيطانها مختلف أنحاء البلاد .

الخدمة العسكرية ، وحديثاً : الصحافة . . .) وغني عن البيان أن السينما والاداعة . . انضمت إلى العوامل المذكورة أخيراً ، وصارت تساعد على تعميم اللغة الفصحى مساعدة كبيرة .

فاذا قيل لنا الآن : ولافرق بين لغة الكلام ولغة الكتابة في فرنسا وجب أن نعلم علم اليقين بأن ذلك إنما سم بفضل الاحداث التي توالى منذ مدة تزيد على ثمانية قرون . ولاسيما بفضل الجهود الجدية التي بذلت - ولا تزال تبذل - والتدابير الفعالة التي اتخذت - ولا تزال تتخذ - منذ بدء حملة الثورة الكبرى على اللهجات العامية .

ومع هذا كله ، يجب أن نلاحظ بأن القول أنه (لايوجد في فرنسا فرق بين لغة الكتابة ولغة الكلام) لا يخلو من المغالاة فان ذلك ، إذا كان صحيحاً بالنسبة إلى معظم المدن والقصبات الكبيرة ، فانه بعيد عن الصحة بالنسبة إلى كثير من القرى في بعض الأيالات .

فانه من الثابت بأن هناك ملايين من الفرنسيين لايزالون في طور (ثانية اللغة) ، فانهم يتكلمون في بيوتهم ولاسيما مع العجائز والجدات ، باللهجات عامية ولغات خاصة وأن كانوا يتقنون الفرنسية الفصحى ويتكلمون بها خلال اتصالاتهم الخارجية .

فاللهجات العامية في فرنسا لم تندثر تماماً وإن كانت قد تضاءلت كثيراً .

فأرى أن أشير هنا إلى بعض الامثلة التي صادفتها خلال مراجعة مصادر بحثي هذا :

فان هناك جماعات تقول j'avons عوضاً عن j'ai وذلك قياساً على قولهم : nous avons ومن يقول il ta té في مقام il a été ، ومن يلفظ كلمة rouge على شكل rouche ومن يقول remettez-vous في مقام asseyez-vous ومن يسمي الحديقة courtile عوضاً عن jardin ، ومن يقول j'espère tel بمعنى j'attends tel

ب) ان البلاد العربية لم تُبْتَل بتفتت سياسي واداري واقتصادي ، مثل الذي ابتليت به البلاد الرومانية في عصور الاقطاع الطويلة .

ج) ان الامية المطلقة لم تفتش في البلاد العربية في وقت من الاوقات بقدر ما تفتش في العالم الغربي خلال العصور الآنفة الذكر .

د) ان البلاد العربية لم ينزل بعضها عن بعض انعزالا يشبه الانعزال الذي حصل في البلاد الرومانية . بل ظل الاتصال بين مختلف أقطارها قائما ، بفضل القوافل التجارية التي لم تنقطع عن الازدهار من ناحيته ، وقوافل الحج التي ظلت تنقل جماعات كبيرة من المسلمين كل سنة ، من مختلف أنحاء البلاد الى الحجاز من ناحية أخرى

هـ) ان الديانة الاسلامية التزمت العربية الفصحى التراماً تاماً، وظلت تساندها وتوازرها دون انقطاع، ولم تنخل عنها اللهجة من اللهجات، في وقت من الاوقات» ولهذا الاسباب الاساسية كلها . اختلف مصير اللغة العربية عن مصير اللاتينية اختلافاً كلياً .

فان الاحداث والعوامل التي ذكرناها آنفاً قد تضافرت على ادامة حياة اللغة العربية . في حين ان العوامل التي احاطت باللغة اللاتينية انتهت الى اقصائها عن ميدان الاستعمال . وجعلها تنتقل الى عالم الاموات . بعد أن أنجبت «اللغات اللاتينية» المعلومة الآن .

— 2 —

ولإزالة جميع الشكوك التي قد تساور بعض الازهان أرى من المفيد أن اوضح اهم الفوارق التي ذكرتها آنفاً ، بشيء من التفصيل .

ا) لقد قلت : ان اللغة العربية — بعد أن استقرت في العالم العربي الحالي — لم تتعرض الى غزوات أخرى، كالتى تعرضت اليها اللغات الرومانية، من جراء استيلاء القبائل الجرمانية، واستيطانها في مختلف أنحاء البلاد .

الواقع أن عدة اسر مالكة غير عربية استولت على زمام الحكم في مختلف البلاد العربية ، في تواريخ مختلفة إلا أن حكم تلك الاسر المالكة لم يتم بفضل جماعات كبيرة من بني قومهم ، ولم يترافق باستيطان عدد كبير من تلك الجماعات، ولذلك لم تلبث تلك الاسر المالكة أن استعربت ، فبنت لغة البلاد .

ولم يشذ عما قلناه آنفاً إلا اسرة مالكة واحدة ، وهي اسرة بني عثمان ، فانها لم تستعرب مثل سائر الاسر المالكة ، لان عاصمة ملكها كانت — وظلت — خارج البلاد العربية . ونستطيع ان نقول : انها حكمت البلاد العربية — وظلت تحكها — من الخارج ، على مبعده منها . وفضلا عن ذلك كانت لغتها ضعيفة جداً حيال العربية ، ولهذا السبب تأثرت هي بها اكثر مما أثرت فيها . فتأثير لغة بني عثمان في اللغة العربية ظل محدوداً ، على الرغم من استمرار حكمها مدة تقرب من أربعة قرون .

ولا نغالي اذا قلنا : ان تأثيرها الاساسي لم يتجاوز كثيراً أمر تأخير نهضة الادب العربي ، من جراء عدم وجود دولة عربية تشجع الادب . وتهيء له وسائل التقدم والنهوض .

* * *

ب) وقلت : إن البلاد العربية لم تُبْتَل بتشتت وتفتت يماثل أو يقارب ما ابتليت به البلاد الاوربية خلال العهود الاقطاعية .

«» يضاف الى هذا كله ان الشعوب العربية تشعر بوحدتها وتطالب بها ، على حين ان الشعوب اللاتينية تشعر على العكس بقومياتها مستقلة ولا يود أي منها الاندماج مع غيره في قومية واحدة — (اللسان العربي) —

منذ ظهور الاسلام ، وصارت تنفذ فيه بصورة فعلية
وبمقياس واسع ، منذ القرن الاول للهجرة .

ولذلك عم تعليم القرآن في جميع الجهات بسرعة
كبيرة . ومن المعلوم أن لغة القرآن ، هي اللغة العربية
الفصحى .

ومما تجب ملاحظته في هذا المضمار أن الكنائس
المسيحية في البلاد العربية ، هي أيضاً انتهت الى التزام
العربية الفصحى ، فان الكنائس الشرقية جعلت العربية
لغة الصلوات والمواعظ منذ قرون عديدة . كما أن
البروتستان أيضاً اعتمدوا ترجمة الانجيل الى اللغة العربية.
والكنيسة الارثوذكسية كذلك ، جعلت العربية لغة
الطقوس والصلوات والمواعظ ، بعد أن تخلصت من
ريقة اليونانية .

ولهذه الاسباب العديدة ظل اتصال العرب باللغة
الفصحى وثيقاً ، فلم يترك مجالاً لتباعد لغة الكلام عن
لغة الكتابة تباعداً كبيراً .

والقوارق بين لغة الكلام ولغة الكتابة - بين العامية
والفصحى - لم تتعد قط حدود فوارق اللهجات ، التي
لا تحول دون تفاهم اصحابها ، بشيء يسير من الجهد
والانتباه ..

واذا كان الناس لا يتكلمون الآن بالعربية الفصحى
فانهم لا يعجزون عن فهمها ، ولو كانوا اميين .

فضلا عن ذلك اننا نلاحظ ان اللغة الفصحى صارت
تزداد تأثيراً وتغلباً على اللهجات العامية شيئاً فشيئاً ، منذ
بدأت النهضة الفكرية والقومية في مختلف الاقطار
العربية . حتى أن التقدم في هذا المضمار اصبح يظهر الى
العيان - ويلبس لمس اليدين - حتى خلال عقد واحد من
السنين . وهذا على الرغم من عدم وجود خطة موضوعة
لمكافحة العامية ونشر الفصحى بصورة منتظمة فعالة .

الواقع أن البلاد العربية أيضاً فقدت «الوحدة السامية»
وانقسمت الى دول ودويلات عديدة ، إلا أن عدد هذه
الدول والدويلات ظل محدوداً . ولم يصل الانقسام
السياسي في العالم العربي - حتى في أسوأ عهود وملوك
الطوائف - ولو من بعيد - الى درجة التفتت العام الذي
حدث في العالم الغربي ، حيث أصبحت كل مقاطعة
- وكل مدينة تقريباً - مستقلة ومنطوية على نفسها .

(ج) وقلت : ان الديانة الاسلامية التزمت العربية
الفصحى كل الالتزام ، ولم تتخل عنها للهجة من اللهجات
العامية ، في يوم من الايام .

وذلك لانها لم تعهد بمهمة تلاوة القرآن الى أمية
المساجد وخطباء الجوامع وحدهم - كما فعلت الديانة
المسيحية في العالم الروماني - بل فرضت ذلك على كسل
مسلم ومسلمة . فصار لزاماً على كل فرد أن يتلو طائفة
من الآيات القرآنية ، كل يوم خلال الصلوات الخمس .

حتى خلال الصلوات التي تؤدي بالجماعة ، يترتب
على كل فرد مؤتم بأحد المصلين ، أن يستمع الى ما يتلوه
الإمام جهراً من ناحية ، وأن يتلو - بعد ذلك - هو بنفسه
سراً آيات اخرى من ناحية ثانية .

ان هذه الاحكام الدينية استوجبت إنشاء مدارس
وكتاتيب كثيرة لتعليم القرآن - قراءة وحفظاً - الى جميع
الاطفال . وهذه المدارس والكتاتيب عمت جميع أنحاء
البلاد ، ولم تنقطع عن العمل ، حتى في أسوأ عصور
الانحطاط .

وكل ذلك ، حال دون انقطاع صلة العرب بالعربية
الفصحى ، بل ظل يذكرهم بها . ويوصلهم اليها . على
الدوام . عن طريق السماع المستمر ، والتلاوة .

ونستطيع أن نقول : أن فكرة «التعليم العام» التي
ظهرت في العالم الغربي مع ظهور البروتستانتية في القرن
السادس عشر للميلاد ، كانت قد تولدت في العالم العربي

انها استطاعت أن تغلب الى الآن على جميع عوامل
البيلة التي تألبت عليها خلال عصور الانحطاط الطويلة،
فلم تفقد نسخ الحياة ، حتى في عهود حكم الاجنبي
القاسي ، وعصور الاستعمار الخانق .

فلا يمكن أن تفقد حيويتها بعد الآن ، ويخطيء من
يظن أنها ستقف عن النمو والازدهار في عصور النهضة
وعهود الاستقلال ، و.. لاسيما.. بعد بزوغ فجر الاتحاد
انها لا تزال حية ونامية ، ولاشك في أنها ستزداد
نمواً في مستقبل الايام ، وستصبح أشد حيوية مما هي
الآن.....

ان اللغة الفصحى هي الآن لغة القراءة والكتابة
والدرس ، في جميع المدارس والمعاهد العربية ، التي
صارت تعد بعشرات الآلاف والتي تجمع كل يوم
عدة ملايين من التلاميذ والطلاب .

والجرائد اليومية تصدر في جميع الاقطار العربية
باللغة الفصحى . ومن المعلوم أنها تطبع كل يوم مئات
الآلاف من النسخ . تتناولها أيدي الملايين من القراء . من
مختلف الطبقات .

فلا يجوز - والحالة هذه - تشبيه العربية الفصحى
باللاتينية ، بوجه من الوجوه .

مدخل إلى اللغويات التطبيقية

تأليف : س. بيت كوردر
ترجمة الأستاذ جمال صبري

نشر فيما يلي ترجمة الفصل الأول من كتاب

INTRODUCING APPLIED LINGUISTICS

استعمالها من جانب مجموعة من المهنيين الذين تقوم اللغة بدور رئيسي في انشطتهم . واعتقد كأحد محصي اللغة ان اللغويات التطبيقية يفترض فيها اولا ان تكون « لغويات » . بمعنى ان المرء لا يستطيع استخدام ما لا يملكه . وعلى هذا : فان القارئ الملم باللغويات فعلا سيجد ان القسمين الاولين يحتويان على مادة مألوفة ، الى حد كبير ، بالرغم من ان تأكيدى نسبيا على الفروع المختلفة لدراسة اللغويات يعكس اهتمامها بتعلم اللغات اكثر مما يعكس درجة الاكتفاء النظرى التى حققتها تلك الفروع . اما بالنسبة لمن لم يتلقوا تدريبا ما على اللغويات . فان القسمين الآنفى الذكر يزودانهم بنظرة عامة شاملة او « عرض » لما تتناوله اللغويات ، كما تراها عين عالم اللغة التطبيقى ، اكثر من تزويدهم بمقدمة شكلية للموضوع ، فاذا كان العرض الذى قدمته يثير اهتمامهم : فثمّة مداخل ممتازة عديدة للموضوع لهم ان يرجعوا اليها .

مقدمة :

تعليم اللغات : فن وعلم

غالبا ما يقال ان تعليم اللغات فن ، فاذا كان

كان هدفى من تأليف هذا الكتاب بيان الصلة بين الدراسات التى يطلق عليها ، اجمالا ، (الدراسات اللغوية) وبين عدد من المهام العملية المتصلة بتعليم اللغات . من المؤكد ان هناك نفرا من القراء يختلفون بشأن الصلة بين (الدراسات اللغوية) و (تعليم اللغات) الا انهم قد يوجهون النقد لى لتقيدى الضمنى بقصر استخدام مصطلح « اللغويات التطبيقية » على مجال النشاط هذا . على اساس انه ثمة مهام عملية اخرى خلاف تعليم اللغات لها صلة بمعرفة اللغويات . هذا ، وانا لا اختلف مع هؤلاء القراء ، من حيث المبدأ ، ومع ذلك اتول انه بسبب الاهتمام العام بتعليم اللغات ، وبسبب التأييد الرسمى العظيم الشأن الذى انيط فى السنوات الاخيرة بالبحوث والتعليم فى تطبيق اللغويات على تعليم اللغات : شاع هذا المصطلح وقصر استخدامه فعلا على هذا النحو .

وبالرغم من ان هذا الكتاب موجه اساسا لتدريب معلمى اللغات واولئك الذين يعدون انفسهم ليصبحوا معلمى لغات . أمل ان يلقى اهتماما من جانب علماء اللغة الذين يودون معرفة شىء ما عن استخدام ابحاثهم واساليبهم واضافاتهم وطريقة

اللغويات التطبيقية وتعليم اللغات :

ليس هذا كتابا خاصا بتعليم اللغات ، وهو ليس دليلا تعليميا عن كيفية تدريس اللغة ، اذ ثمة كثير من الكتب التى يعول عليها او التى لا يعتمد بها والتى تتسم بالتضليل فى هذا الموضوع . اما كتابنا هذا فيدور حول مساهمة اضافات واساليب المعنيين بدراسة اللغة بطريقة علمية من قبيل عالم اللغة والعالم النفسى وعالم اللغة الاجتماعى (هذا ، اذا اقتصرنا على ذكر اهم الفئات) ، الذين يمكنهم ايجاد الحلول لبعض المشكلات التى تنشأ فى دور تخطيط وتنظيم وتنفيذ برامج تعليم اللغات ، انه كتاب عن اللغويات التطبيقية .

وهناك بالطبع فائدة من النظريات الخاصة بطبيعة اللغة البشرية لاناس آخرين بالاضافة الى كونها مفيدة لمعلم اللغات ، وانه لمن الخطأ أن نربط ربطا مطلقا بين اللغويات التطبيقية وتعليم اللغات ، فثمة اناس آخرون يضطلعون بأنشطة عملية تلعب فيها اللغة دورا رئيسيا ، ومن ثم فمعرفة بطبيعتها مفيدة عند معالجة المشاكل التى تنشأ عن عملهم ، وتضم تلك الفئة من الناس ، على سبيل المثال ، اخصائى علاج عيوب الحديث ، والناقد الادبى ، ومهندس المواصلات السلكية واللاسلكية . هذا ، ونحن لا نربط بين اللغويات التطبيقية وتعليم اللغات ، فهما نشاطان مختلفان ولا يمثل أحدهما الآخر ، فتطبيق المعرفة بعلم اللغويات على شىء ما — او اللغويات التطبيقية كما يدل عليها اسمها — يعد نشاطا فى حد ذاته ، وهى ليست دراسة نظرية ، بل أنها تستفيد مما توصلت اليه الدراسات النظرية ، ويعد العالم اللغوى بمثابة المستخدم للنظريات لا مؤسسها ، واذا ما استخدمنا المصطلح « نظرية » كما يستخدم فى العلم ، فليس هناك شىء من قبيل « نظرية تعليم اللغات » او « نظرية علاج عيوب الحديث » او « نظرية النقد الادبى » . وتعليم اللغات كذلك نشاط فى حد ذاته ، غير أن تعليم اللغات ليس هو نفس نشاط اللغويات التطبيقية ، ومع ذلك اذا فسرنا تعليم اللغات بأوسع ما يحمله المعنى بحيث يشتمل على كافة عمليات التخطيط واتخاذ القرارات التى تتم خارج حجرة الدراسة ، كان من الممكن وجود عنصر اللغويات التطبيقية فى عملية

المقصود بهذا القول هو أن تعليم اللغات نشاط ينطوى على مهارة فائقة تكسب بالملاحظة النابهة والممارسة المتأنية ، فهى ملاحظة لا طائل من ورائها . ولكن الذى يكمن وراء هذا القول الجزم هو أن العلم والفن مطلقان بالتبادل ، ومن ثم لا يمكن للعلم أن يؤدي أى دور فى تعليم اللغات . هذا ، ونحن نسمى النشاط العملى الخاص فنا حين لا يمكن تنفيذه بنجاح باتباع مجموعة من القواعد المتاحة ، وحين تكون معرفتنا بكافة العوامل التى ينطوى عليها هذا النشاط ناقصة ، يجب ، نتيجة لذلك ، ترك القرارات الخاصة بكيفية المضي قدما لمعرفة ممارس النشاط وخبرته . وتعليم اللغات عبارة عن نشاط من هذا القبيل ، فهو ينطوى على عدة اعتبارات مختلفة أو ، اذا استخدمنا المصطلح الفنى ، « متغيرات » ، لا يمكن تقييم أو قياس اهميتها النسبية وقيمتها حتى لو كنا على علم بها جميعا ، ولهذا السبب لا يمكن حساب عملية تعليم اللغات باستخدام الحاسب الالىكترونى اذ يتعذر وضع نموذج رياضى لها ، او اخضاعها لمجموعة من الاجراءات النظامية المرتبطة بطريقة منطقية ، او للوغاريتم ، ولكن لما كانت كافة هذه المتغيرات غير معروفة أو يمكن تحديدها من حيث الكم أو السيطرة عليها ، فان ذلك لا يعنى تطبيق هذه الخصائص على أى منها . فمثلا ثمة جملة من العوامل التى يجب وضعها فى الاعتبار فى اية عملية تعليمية وهى : قدرات التلاميذ واستعداداتهم الفطرية وقدراتهم الذهنية ، ومواقفهم او دوافعهم ازاء عملية التعلم ، وكلها أمور محصها علماء النفس التربويون ، ويمكن على الاكمل وصف وقياس وضبط بعض سماتها .

ولكن ثمة مجموعة هائلة من المعارف المتاحة عن طبيعة اللغة البشرية وعن كيفية تعلمها ، وعن الدور الذى تؤديه اللغة فى حياة الفرد والمجتمع ، فهناك البحث العلمى الذى يتولاه المعنيون بدراسة مسائل اللغة البشرية كما يتولاه علماء اللغة ، والذى يجب أن يكون ذا تأثير ما على بعض المسائل التى تنشأ عند تخطيط برنامج تعليم اللغة وتنفيذه . وتوفر اللغويات مجموعة متزايدة من المعارف العملية حول اللغة ، وهذه المعارف بمثابة الموجه لنشاط معلم اللغة . ويتلخص موضوع هذا الكتاب فى كيفية الاستفادة من هذه المعارف بأكبر قدر مستطاع .

تعليم اللغات برمتها ، تماما كما أن هناك عنصر اللغويات التطبيقية في عملية علاج عيوب الحديث أو النقد الأدبي برمتها .

اذن فهذا كتاب عن اللغويات التطبيقية في تعليم اللغات ، كتاب عن تلك الاجزاء الاجمالية من عملية تعليم اللغات التي يتم بها اتخاذ القرارات على ضوء طبيعة اللغة البشرية ، وكيفية تعلمها ، ودورها في المجتمع . ويعالج الكتاب اجزاء العملية التي تتعرض بقوة لنوع ما من الترتيب المنهجي القائم على المعرفة المكتسبة بالاسلوب العلمى .

وبالرغم من مئات السنين التي تمت خلالها دراسة اللغات في الحضارات المختلفة ، ما زلنا لا نعلم سوى القليل عن سماتها . هذا ، وكانت خطى البحث اسرع في السنوات الاخيرة ، واصبحت اساليبه اكثر دقة الى الحد الذى يمكننا معه الآن ان نزعم ، ولنا بعض التبرير وفي حدود معينة ، ان الدراسات اللغوية تقوم على العلم ، ولهذا قلت ان اللغويات التطبيقية تعالج ذلك الجزء من تعليم اللغات الذى يتعرض بقوة لنوع ما من الترتيب المنهجي الدقيق ، غير اننا ما زلنا بعيدين كثيرا عن ذلك الترتيب المنهجي ، كما سيتضح في الفصول التالية من الكتاب ، ولهذا السبب لا يمكن للغويات ، حتى الآن ، ان تعطى سوى اجابات محددة قليلة لمسائل تعليم اللغات ، اذ ان عمر اللغويات التطبيقية ، كمجال للدراسة ، لا يزيد على مدة العشرين عاما ، وللقارئ نفسه ان يحكم على مدى ما تم انجازه في تلك الفترة .

عملية تعليم اللغات :

اشرت في القسم الاخير الى « العملية الاجمالية لتعليم اللغات » وقد فعلت ذلك لان المصطلح « تعليم » مبهم المعنى الى حد كبير ، فهو غالبا ما يشير الى نشاط المعلم في حجرة الدراسة والى تفاعله مع تلاميذه ، غير ان المعلمين يعرفون ان ذلك يمثل نقطة النهاية في نشاط يستنفد الوقت ، والتخطيط ، والاعداد التفصيلي ، والتصويب ، وتقييم النشاط ، وكلها امور لها اهميتها حقا وتعد جزءا لا غنى عنه في عملهم ، الا ان ما لا يعترف به المعلمون عن طيب نفس دائما هو اعتمادهم على عمل الآخرين الذين يساهمون فيما يجرى في حجرة الدراسة والى حد ما ، يقررون ما يجرى فيها ، فالمعلمون يستخدمون الكتب المقررة والادوات والمعينات البصرية

وغيرها من معينات ، ويعملون وفقا لمنهج وجدول زمني ، وغالبا ما يقدمون تلاميذهم للاختبارات او الاختبارات التي يقوم اناس آخرون باعدادها . وفي اغلب الاحيان ينعدم الدور الذى يؤدونه في هذه المواد والخطط او يتسم ذلك الدور بالبساطة ، الا ان هذه المواد والخطط تسهم او حتى تتحكم ، الى حد ما ، فيما يدور في حجرة الدراسة ، ومن ثم فائى اضمن عملية التعليم الاجمالية كل ما يتعلق بالتخطيط واتخاذ القرارات مهما كان مستوى تأثيرها المباشر او غير المباشر على ما يجرى في حجرة الدراسة . واذا اعتبرنا ان دور المعلم يكمن في تهيئة الظروف التي يمكن لعملية التعلم ان تتم فيها على خير وجه ، وعلى هذا فكل القرارات التي تؤثر في هذا الهدف تعد كجزء من عملية التعليم الكلية ، وتتخذ بعض هذه القرارات على الاكمل في ضوء نهجنا الحالي لطبيعة اللغات .

تتخذ القرارات وتوضع الخطط على مستويات مختلفة ، ففي المستوى الاعلى تكون القرارات سياسية اذ تقوم الحكومات والوزارات باتخاذها ، والقرارات على هذا المستوى تكون ذات طبيعة عامة من ناحية الاتفاق على تدريس اللغات ، واى اللغات تدرس ، وما المبالغ التي يجب رصدها لتدريب المعلمين ودفن روايتهم . وقد يظن المرء ان ليس لعلماء اللغوية ما يساهمون به في هذا الشأن غير انه من المؤكد ان تلك هى الحال في معظم البلدان الاوروبية ، اما في الدول المتعددة اللغات في افريقيا وآسيا فان القرارات المتعلقة باى اللغات تدرس وفي اى مستوى من نظام التعليم يجب تدريسها — تعد قرارات صعبة ، تتخذ فعلا ، والى حد ما ، على اساس دراسات يجريها علماء اللغة الاجتماعيون من حيث توزيع اللغات المختلفة في المجتمع ، ووظائفها المختلفة ، والدور الذى تؤديه هذه اللغات في الحياة السياسية والتجارية في المجتمع ، وفي اتصالاتها بالعالم الخارجى ، هو احد مجالات الدراسات اللغوية التي تعرف احيانا « بالتخطيط اللغوى » .

وبعد اتخاذ مثل هذه القرارات السياسية ، اساسا ، ثمة ناحية اخرى من التخطيط واتخاذ القرارات تقوم على اعتبارات اقتصادية وادارية واجتماعية في نطاق الدولة ، من قبيل ذلك طول فترة تعليم لغات معينة ، والاهداف من تعليمها ، ومن يتعلمها . وقد تحتل مثل هذه القرارات مكانة ادى في تسلسل السلطة ، وغالبا ما تتسم تلك القرارات

بالإقليمية وتمتد أحيانا على البنية الادارية لنظام التعليم في المدرسة ذاتها ، وهنا لعالم اللغة الاجتماعى دور يوديه .

ويمكننا معا تصنيف جميع القرارات الاساسية المتعلقة بتحديد اهداف تعلم اللغة وتوفير الوسائل اللازمة لذلك على قمة التسلسل الهرمى لبنية العملية الاجمالية لتعليم اللغات ، أما المستوى الثانى فيتعلق بتنفيذ هذه القرارات بصفة عامة ، بالاضافة الى مشكلات ما يجب تدريسه وكيفية تنظيمه ، هذا ما يدور حوله موضوع هذا الكتاب اذ أن عند هذا المستوى تكون مساهمة اللغويات في تعليم اللغات فعالة بصفة أساسية . وللغويات التطبيقية صلة باستنباط المناهج والمواد لتنفيذ مرام سلطات التعليم سواء على المستوى المحلى أو القومى . وتتصل المناهج بلغات معينة يجب تدريسها لمجموعات معينة من الدارسين ، الى حد ما ، لاهداف محددة في حدود معينها من حيث الوقت والتكاليف ، وتعد الكتب المقررة و مواد التدريس بكافة انواعها هى التحقيق المادى للموس لخطه المناهج .

أما المستوى الثالث الذى تتخذ عنده قرارات تعليم اللغات فيتمثل في حجرة الدراسة ، ومن الواضح

هذا ويمكننا تلخيص محتوى القسمين السابقين في الجدول التالى :

جدول رقم 1 : التسلسل الهرمى

لوظائف التخطيط في العملية الاجمالية لتعليم اللغات

المستوى الاول	سياسى	الحكومة	هل يتم تعليم اللغات ؟ اى لغات نعلم ومن الذى يتعلمها ؟
المستوى الثانى	لغوى واجتماعى	اللغوى التطبيقى	الذى يجب تدريسه ؟ ومتى ، وما تدر ما يتم تدريسه ؟
المستوى الثالث	لغوى نفسانى وتربوى	معلم الفصل	كيفية التدريس

النجاح في تعليم اللغات :

يعد عالم اللغة التطبيقى مساهما في عملية تعليم اللغات برمتها ، وهو لا يتحكم فيها ، كما لا يتحكم فيها معلم الفصل ، كذلك ناظر المدرسة ووزير التربية لا يتحكما في هذه القضية ، اذ أن عملية تعليم اللغات عبارة عن مشروع تعاونى ، وكلما زاد فهم كل مساهم

أن المساهمة اللغوية عند هذا المستوى مساهمة نفسانية ، وتتعلق بكيفية تعلم الامراد اللغات الاجنبية ، غير أن الاعتبارات الاخرى تمثل دورا آخر : المبادئ التربوية العامة المتعلقة بالدواع والنواقف والذكاء والاستعداد الشخصى ، وهذه الاعتبارات بعيدة عن كونها اعتبارات لغوية ، ولها اهميتها في تدريس الموال كما هو شأنها في تدريس اللغات . . فاولئك الذين يخططون عند المستوى الثانى لا تتوفر لديهم المعلومات التفصيلية المتاحة لمعلم الفصل ، ويمكنهم الاهتمام بهذه المتغيرات بطريقة عامة تماما ، فالراء لا يصادف مناهج او مواد تعليمية معدة ، بصفة خاصة ، للتلاميذ الاذكياء اللامبالين في الثانية عشرة من عمرهم !

كان التقليد السائد ان يعهد بعملية اعداد المناهج والمواد والكتب المقررة لتعليم اللغات الى المعلمين من ذوى الخبرة ، وما زال هذا التقليد متبعا الى حد كبير ، اما في وقتنا الحاضر فان هذا الاجراء يتم ، كمجهود تعاونى كما هو الحال بالنسبة لتطوير المقررات فى المجالات الاخرى ، فيعمل المعلمون ذوو الخبرة من خلاله مع المتخصصين في موضوع البحث (وغالبا ما يكون المتخصصون من المعلمين ذوى الدربة) ، وفي هذه الحالة يمثل المتخصصون ما أسميهم بعلماء اللغة التطبيقيين .

فيه للمبادئ التى يتم بموجبها اتخاذ القرارات على كافة المستويات ، زادت فرص نجاح العملية برمتها ، ولكن علينا أن نتوقع طوال الوقت وجوب ايجاد حلول وسط ، فمثلا قد يقترح عالم اللغة النفسانى وجود سن امثل لبدء دراسة اللغات الاجنبية ، وقد تشير الاعتبارات السياسية والاقتصادية الى أنه من غير

الجزء الأول اللغات وتعلمها الفصل الأول آراء فى اللغة

ماهية اللغة :

ان القرارات التى نتخذها بوعى وبلا وعى ، عند القيام بتنفيذ مهمة عملية ما تتأثر بالآراء التى نتقبلها بشأن طبيعة الشيء الذى نعالجه ، ولكل امرئ ما نسميه « بالنظرية اللارسمية » عن اللغة واذا كان من معلمى لغة ما فله نظرية لا رسمية خاصة عن كيفية تعلم تلك اللغة ، وتوصف النظرية بأنها غير رسمية لانها ليست قاطعة أى انه لا يعبر عنها بصيغة منطقية دقيقة - ونتيجة لذلك فقد تحتوى على مفارقات وتناقضات كامنة ، وهى ، بهذا المعنى ، لا تتسم بالعلمية . ربما كان من الادق ان نقول ان كل امرئ يؤمن بعدة نظريات غير رسمية عن اللغة ، ويكون جزء من النظرية تناقضا مع اجزاء نظرية اخرى، فاللغة شيء جد معقد ، ولا يمكن لاي فرد ان يجد لها تعليلا مرضيا تماما فى نطاق نظرية شاملة متكاملة . هذا ومن المؤكد ان علماء اللغة قد وجدها كذلك ، ولهذا السبب نحين يوجه الى احد علماء اللغة سؤال : ما هى اللغة ؟ فمن المحتمل ان يجيب بسؤال آخر : ولماذا تود ان تعرف ؟ فاذا كنا نقوم بتعليم اللغات فان اسلوبنا فى أداء تلك المهمة يتأثر او يتحدد وفقا لاعتقادنا فى ماهية اللغة ، وللنظرية المعينة غير الرسمية او النظريات التى نؤمن بها بخصوص اللغة والتى تبدو وثيقة الصلة بالمشكلة المعينة التى تواجهنا .

وبصفة عامة ، ثمة علاقة وثيقة بين الاسلوب الذى نتبعه فى الحديث عن شيء ما وبين اسلوبنا فى النظر الى ذلك الشيء ، فاللغة التى نستخدمها حياله تخدم آراءنا عن ماهيته . اذا اردنا معرفة آراء امرئ ما فى اللغة ، فنجب ان نستمع الى اللغة التى يستخدمها فى الحديث عنها ، فاذا فعلنا ذلك فسرعان ما نلاحظ انه يبدو ان الافراد يؤمنون بوجهات نظر متنافرة حول طبيعة اللغة ، فمثلا ، نسمع الناس عادة يتحدثون عن « استخدام اللغة » : « لقد استخدم لغة مروعة » ، انه استعمل لفظة لم اتمها ، ما فائدة

المستحب ، نتيجة لتحليل عوامل الكلفة والريح ، رصد الاموال اللازمة لتوفير معلمين مؤهلين عند ذلك المستوى . وهنا يتصارع البدآن ، وتمثل الخطة النهائية نوعا من الحل الوسط . هذا ويشترك كل المساهمين فى العملية الاجمالية لتعليم اللغات فى انجاحها ، المجتمع ممثلا فى سلطات التعليم ، وعالم اللغة التطبيقى ومعلم الفصل . غير ان الصعوبة ، كما هو الحال فى جميع العمليات التعليمية ، تكمن فى تعريف معنى « النجاح » ، فالمجتمع قد يعرفه بمفهوم التكامل الاجتماعى ، او العائد التجارى ، او بأحد مفاهيم الانسان المتعلم ، اما المعلم فقد يعرفه بمفهوم الاتجاز الاكاديمى او « تحقيق الفرد لذاته » ، بينما قد يعرفه العالم اللغوى من حيث اكتساب بعض مهارات الاداء اللغوية التى يمكن قياسها . غير ان الافراد هم الذين يتعلمون اللغات لاسباب عديدة ومختلفة ، اما لانهم يجدون متعة فى ذلك ، او لان تعلم اللغات نافع فى تقدمهم الاكاديمى ، او فى مسالكهم المعيشية ، او لانه يفتح امامهم فرصا للاحتكاك والثراء الاجتماعى والثقافى . وهم لا يبحثون او يحتاجون ، بالضرورة ، الى نفس مستوى القدرة على الاداء او حتى نفس مجموعة المهارات اللغوية ، فما يعد نجاحا لاحدهم قد يكون فشلا لسواه ، فطالب العلم ، كسرد ، يهتم بالنجاح وفقا لمفهومه الخاص به .

ويحتاج المرء الى مقياس ما او الى جهاز معين لقياس النجاح ، ولكن لم يتقدم اى انسان حتى الان باقتراح وسيلة لقياس النجاح فى تعلم اللغات ، بمفهوم المجتمع ، سواء المفهوم الثقافى ، او الاجتماعى او التجارى . اما من حيث تحديد اهداف المعلم والمتعلم وعالم اللغة التطبيقى فى مجال اللغة من قبيل المهارات والمعارف المحددة ، فيمكن استنباط وسيلة ما لقياس تلك المهارات والمعارف ، ويمكننا بوجه عام قياس ما يمكننا وصفه ، وتعطينا اللغويات اطارا لوصف ما تقصده بالمهارات والمعارف فى لغة ما ، ومن ثم تجعل فى استطاعتنا ، من حيث المبدأ ، القول ان اسلوبا واحدا للتعليم او مجموعة من مواد التعليم انجح من غيرها لتحقيق هدف معين مع مجموعة معينة من الدارسين . هذا ، ولا يمكن تحقيق تحسن منتظم فى تعليم اللغات من غير الالمام باللغات ، المما تزودنا به اللغات نفسها .

الاستعارة للتحدث عن اللغة ، وتشارك كل الاستعارات في ذلك بالرغم من أنها جميعا تتعامل مع اللغة «كشيء» إلا أنها تسبغ على اللغة صفة المادية .

كذلك نجد الناس يتحدثون عن اللغة « كحادث » ، فيقولون أن محادثة « وقعت » ، وأن الكلمات « تحل » في مناقشة ، بل أننا أحيانا نتحدث عن خطاب القاه شخص ما على أنه « حادث المساء » .

إن اللغة شيء ما « نعرفه » ، ونحن نسأل المرء عما إذا كان « يعرف » الفرنسية أو الألمانية ، أو عما إذا كان « يعرف » كلمة أو أخرى . واللغة أيضا شيء « نفعله » ، فنحن نكتب ، ونقرأ ، ونتحدث بطريقة حسنة أو رديئة . ونحن في هذه الحالة نعامل اللغة ، كسلوك ، يتطلب مهارة وحذقا ، علينا أن نتعلمه ، وهو سلوك يتحسن عن طريق الممارسة .

وتكشف الالفاظ التي نستخدمها في حديثنا عن اللغة وعن مجموعة مختلفة من أساليب النظر إليها والتي وأن كنا نعترف بأنهما أساليب استيعابية في الغالب ، فهي تدل على تباين منطقي معين . والمشكلة لا تكمن في أي من تلك الأساليب « صحيح » . فجميعها صحيحة في سياستها ، إلا أنها لا تتسم واحدة منها بالتمام أو الشمول . وما علينا إلا أن نعترف بأن اللغة ظاهرة معقدة لا يمكن لوجهة نظر واحدة أن تحيط بها . والسؤال الذي يجب أن نوجهه هنا لا ينبغي أن يكون عن أي الآراء « صحيح » بل أي منها « نافع » ، وأي منها « مناسب » لتعليم اللغات . هل يمكننا القول بأن معلم اللغة يمكنه تجاهل أي من المعالجات لقضية اللغة من قبيل المعرفة أو السلوك أو المهارة أو الحادثة أو الشيء .

مشكلة « البعد النفسي » :

كما سبق أن أشار العلماء دائما أن دراسة لغة ما — كما هو الحال بالنسبة لدراسة أية صفة مميزة للإنسان والمجتمع — تكنفها صعوبة منشؤها أن هذه الدراسة أو تلك تتعرض لشيء مألوف تماما ، فكل فرد « يعرف » عن اللغة ، لأن الجميع يستخدمونها في كل وقت ، وكل فرد « يعرف » عن المجتمع وعن السلوك الاجتماعي ، لأن الجميع أعضاء في المجتمع ، وهذا أمر « طبيعي » على وجه ما ، هذا ، والتناقض بين

اللغة الفرنسية ؟ » وهذا يوحي بأن اللغة عبارة عن شيء يشبه الاداة التي يمكننا التقاطها ، واستخدامها في غرض ما ثم تركها ثانية ، بل أحيانا يطلق الإفراد على اللغة لفظة أداة ، كما أننا نتحدث عن « حيازة » الناس للغة . فمثلا كتب جونسون أن شكسبير كان لديه « تليل من اللغة اللاتينية وقد اقل من اللغة اليونانية » ، ويقال إن الأطفال « يكتبون » اللغة . ويبدو أننا أحيانا « نفقد » اللغة : « لا أستطيع أن أجد الكلمة المناسبة » . والآن ، إذا اعتبرنا اللغة سلوكا من نوع معين فحسب ، فإن ذلك يعد أسلوبا غريبا للتحدث عنها ، وهل نستطيع أن نتحدث عن « المشي » بنفس الطريقة ، هل نستطيع القول بأننا « نستخدم المشي للتوجه إلى جهة ما ؟ أو « نحصل » أو « نحوز » أو « نفقد » المشي ؟

غالبا ما يتحدث علماء اللغة ، بصفة خاصة ، عن كيفية « عمل » اللغة ، كما لو كانت اللغة أداة تشبه الساعة المنبهة التي يمكن فهم تشغيلها عن طريق دراسة بنيتها الداخلية من تروس ومستنات . ومن المهم هنا أنه بينما تدلنا دراسة البنية الداخلية للساعة عن كيفية عملها ، فإنها لا تدلنا عن الغرض من استخدام الساعات ، ومن الواضح أن الفكرة الخاصة بالبنية الداخلية تكمن وراء العبارات من قبيل « هذه الجملة ذات تركيب معقد » أو عبارة « دراسة تركيب جديد » في مجال التعليم . وبالرغم من أننا عادة ما نفكر في الآليات من حيث كونها أشياء لا حياة فيها ، فإننا كثيرا ما نشير إلى اللغة ككائن حي ، فنحن نتحدث عن « ميلاد » لغة ، وعن « نموها » و « تطورها » و « تدهورها » . هذا ، وللغات فترات من « الأزهار » و « الإزهار » (ودائما تكون هذه الفترات في الماضي) ، وتنسب اللغات أحداها إلى الأخرى في « عائلات » أو « تتولد الواحدة من الأخرى » ، وهي توصف بأنها إما « حية » أو « ميتة » كما أن للغات صفات مادية ومعنوية فهي « جميلة » أو « قبيحة » أو « سوقية » أو « منحطة » أو « متدهورة » .

ولست جادا حين أقول أن الناس يعتقدون حقا أن اللغة عبارة عن شيء مادي يمكن تداوله كآية أداة ، فقد استخدمت تلك الأساليب للتحدث عن اللغة من قبيل الاستعارة ، وأنه لمن الشائق أن نلجأ إلى

ما نعرفه عن بيئتنا الطبيعية وبين تكوينها واعمالها لانت للنظر حقا ، بل ان الحقائق الطبيعية البسيطة للغاية مثل القوانين التي تحكم تارجح المياد (البندول) او تسارع الاجسام الساقطة لا يمكن توقعها ، وأكثر من هذا انما تتعارض وصدق الحدس ، يقابل ذلك تمام الحقائق « الاولية » عن المجتمع او اللغة التي تصبح واضحة جلية متى تمت الإشارة إليها . اذا فصعوبة دراسة السلوك الاجتماعي للانسان ، بما في ذلك لغته ، لا تتمثل كثيرا في التوصل الى البيانات — لان الكثير منها متوفر لدينا ، الى حد ما — ولكن الصعوبة تتمثل في اخراجها من داخلنا ، وفي فصلها عن أنفسنا بغية التوصل الى وجهة نظر موضوعية ، او اذا استخدمنا مصطلح كوموسكى (1968) Chomsky (1) لتحقيق « البعد النفسى » مما ندرسه . ان المعرفة العلمية معرفة عامة ، وهى موضوعية من حيث انها مفتوحة للتمعن والتحجيص والمعارضة من قبل اى فرد يعرف كيفية الشروع فى ذلك . والعالم اللغوى ، فى دراسته للغة ما ، انما يحاول الوصول الى هذا البعد النفسى ، ومن ثم فانه يجعل اللغة « موضوعية » او يسبغ عليها صفة المادية ويساعده فى ذلك ان كثيرا من الدراسة التقليدية للغة يعنى باللغات « الميتة » وبياناته عبارة عن « نصوص » . والتوصل الى « البعد النفسى » ، فى هذه الحالة ، امر اكثر سهولة ويسرا لان المراقب لم يكن يدرس بطريقة مباشرة سلوكه او سلوك المجتمع الذى ما زال قائما ، ويمكنه بكل سهولة ان يفصل فصلا تاما بين دراسة اللغة ودراسة الشعب الذى كان يتحدث بها ثقافته . فى واقع الامر كان السبب وراء دراسة لغة ما دائما هو ان تلك اللغة أصبحت شيئا غريبا وغير مفهوم ، نشأت عن الحاجة الى شرح نصوص أدبية او دينية قديمة او تقليدية ، الا ان العالم اللغوى كان على وعى بما يفعله حين يتبنى وجهة النظر هذه ، وذلك لا يعنى اعتقاده بأن اللغة عبارة عن « شئ » ، او ان للغة حقيقة موضوعية كترك التي للمياد (البندول) او للجسم الصلب الساقط

ومع هذا فالوصول الى ذلك « البعد النفسى »

سهل على اية حال ، وليس ذلك مقصورا على علماء اللغة وجددهم ، فمنهم من يصدر بيانات او يفترض افتراضات لا تقوم على الدراسة الموضوعية ، بل على المعرفة « الخاصة » الحدسية ، شائهم فى ذلك شأن معلمى اللغات ، فكثيرا ما يقول معلم اللغة ان هذه الكلمة او تلك لا تستخدم « بتاتا » فى سياق بعينه ، فهل أسس تصريحه هذا على بحثه الموضوعى أم على بحث شخص غيره ؟ ان مثل هذه البديهييات الخاصة يمكن ان تلقى تعبيرا بصورة حتمية من قبل شخص غير واع ، وقد تكون بمثابة أحكام لها قيمتها ، وحين يؤكد شخص معين ان « الناس لا يقولون ذلك » ، فهل هذا التصريح عن حقيقة يمكن التدليل على صحتها ؟ وهل هى حقا من قبيل الأحكام ذات القيمة ؟ هل هذا يعنى ، حقا ، انه من غير المقبول ، من الناحية الاجتماعية ، قول ذلك ؟ وهنا ايضا يمكننا ان نسال : هل قام هذا التصريح على الفحص الموضوعى لما يفعله اصحاب اللغة الاصليون ، ولا يجدونه مقبولا فى موقف معين ، او هل ذلك يمثل الحكم الخاص للمعلم او للعالم اللغوى ؟ او انه يمثل أهواء وآراء طبقته أو منته الاجتماعية ؟ هذا ، ومن الممكن دراسة المواقف الاجتماعية ازاء اللغة بطريقة علمية ، فتلك المواقف كما سماها بلموفيلد (1944) Bloomfield (2) « استجابات من المرتبة الثالثة » للغة ، وكانت هذه المواقف موضوعا لدراسة اجراها ميتنز (1970) (3) Mittins

ولكن اذا قال شخص ما « تلك (النبذة من اللغة) ليست صحيحة » ، فلسنا دائما متأكدين مما اذا كان يصدر حكما ذا قيمة — مؤكدين بذلك ان الصيغة موضوع البحث لم تكن موافقة لبعض « المعلمين » لاستخدام اللغة والمجتمع من الناحية الاجتماعية (مثل نفى النفى غير صحيح) ، الذى كثيرا ما يستخدم فى نقض المهود ، او سياق حقيقة مرعية ، بحيث لا ينطق اى متحدث باللغة بمثل هذه المجموعة المتعاقبة من الكلمات (مثل : هذه — قصتى — رجل) ، وسنقوم بمناقشة هذه المشكلة فى الفصل الثانى .

- (1) Chomsky N. (1968) Language and Mind, Harcourt, Brace and World
(2) Bloomfield, L. (1944), 'Secondary and Tertiary responses to language', Language, n. 20 pp. 45 - 55
(3) Mittins, W.H. (1970), "Attitudes to English Usage", Language and Language Learning, n. 30 OUP.

اللغة والفرد :

اللغات على أنها دراسة للخواص والمميزات والحالات المحددة للعقل الذي تعد مظاهره الخارجية سلوكا يمكن ملاحظته ، ما الذى ينبغى علينا « معرفته » حتى نتصرف وفقا لعلم اللغات ؟ وكما قال كوموسكى (1968) Chomsky (1) أن ما يحاول العالم اللغوى الذى يتبنى هذه المعالجة ، فعله هو « تثبيت خواص عامة معينة للذكاء البشرى ، وما اللغويات ، ببساطة ، الا مجال فرعى من مجالات علم النفس التى تعالج سمات العقل هذه » .

غير اننا لا نولد ونحن نتحدث اللغة ونفهمها ، فعلينا اكتسابها ، وعلى هذا فان التعامل مع اللغة بهذه الكيفية لا يعنى بما يجرى حين نتحدث ونفهم وهو ما سمى بالاداء اللغوى فحسب ، بل يعنى بالكيفية التى تصبح بها قادرين على أداء تلك الامور . ومن الواضح أن السلوك اللغوى عبارة عن مهارة معقدة لدرجة انه يبدو من غير المعقول تماما أن يكتسبها طفل في فترة وجيزة ، وقد أوحى ذلك الى الناس أنه لا بد أن يكون الاستعداد الطبيعى لاكتساب تلك المهارة فطريا ، ولا بد أن تعنى أن البشر وحدهم هم الناطقون باللغات ، وان ثمة خاصية معينة بالجنس البشرى تخلق فيهم الميل الى اكتساب اللغات ويذهب بعض علماء اللغات وعلماء النفس في ذلك شاوا بعيدا اذ يرون أن الطفل يولد ولديه قدرة فطرية وارادة لتعلم اللغة . ويرى آخرون ، ممن يحتاطون في آرائهم ، أن القدرة والميل الفطري لاكتساب اللغة يعد من جملة وظائف القدرات الإدراكية للبشر التى تمكنهم من التعلم أصلا .

وتناول اللغة ، كظاهرة تخص الفرد ، انما يعنى اساسيا بتفسير كيفية اكتسابنا للغات ، وعلاقتها بالاجهزة الإدراكية العامة لسدى البشر ، وبالآليات النفسانية (السيكولوجية) التى تكمن وراء فهم الكلام وأدائه ، أكثر من عنايتها بالفرض من اللغات ، أى بوظيفتها كوسيلة تخاطب اذ أن ذلك ينطوى بالضرورة على أكثر من فرد واحد .

اللغة كظاهرة اجتماعية :

يتحدث الناس الى أنفسهم بدون صوت ، وأحيانا يتحدثون الى أنفسهم بصوت مسموع ، وينبغى لكل تقرير عن اللغة أن يضع ذلك موضع الاعتبار ، غالبا

ان الطريقة الاولى التى يمكن لنا معالجة اللغة من خلالها هى كون اللغة ظاهرة يختص بها الانسان الفرد ، وتمنى هذه الطريقة بوصف وشرح اللغة على اساس أنها أمر يتعلق بالسلوك البشرى ، فالناس يتحدثون ويكتبون ، ومن الواضح كذلك أنهم يقرأون ويفهمون ما يسمعون وهم لا يولدون ، فاعلين ذلك ، بل عليهم أن يكتسبوا تلك المهارات ، ويبدو أن جميع الأفراد لا يبنون تلك المهارات بنفس الدرجة ، اذ قد يصاب الأفراد في حوادث أو يعانوا من أمراض تجعل أداءهم عاجزا ، وهكذا تعتبر اللغة جزءا من نفسانية البشر ، نوعا معيناً من السلوك ، سلوكا تتركز وظيفته الرئيسية على التخاطب .

وتتمثل البلبلة التى يسببها مصطلح « سلوك » في أنه دائما يفهم ، الى حد ما ، على أنه إشارة الى الحركات والتصرفات المادية الصريحة والتى يمكن وصفها ، الا أن جزءا من السلوك اللغوى الخاص يفهم اللغة المكتوبة أو المنطوقة . على سبيل المثال ، ينطوى على قليل من الاشارات المادية التى يمكن ملاحظتها أو لا ينطوى على مثل تلك الاشارات اطلاقا . وفي الواقع يمكننا أحيانا أن نستنتج أن الفهم قد تم عن طريق التخيرات التى تحدث في سلوك الفرد الآخر ، فعندما يحظر على شخص اتيان تصرف ما ، فاننا نستنتج أنه فهم ذلك الحظر من خلال ملاحظتنا انه لا يتصرف على ذلك النحو أبدا ، وبالطبع لا يمكننا التأكد تماما من أن سلوكه التالى يعد نتيجة لفهمه . فقد يكون منشأ ذلك السلوك فقدان الاهتمام أو الميل وعلى هذا ، ينبغى أن يفهم السلوك على أنه يتضمن نشاطا غير ملحوظ ، غالبا ما يستنتج من سلوك ملحوظ آخر فحسب .

فاذا ما اعترفنا بأن دراسة السلوك اللغوى تتضمن وصف وتفسير أمور لا يمكن ملاحظتها ، أصبح الموقف أكثر تعقيدا ، اذ علينا أن نفترض جدلا وجود مجموعة من العمليات ، وآلية داخلية تعمل حين نتحدث ونفهم ، يجب أن نفترض وجود شيء ما يسمى العقل . ومن وجهة النظر هذه يمكن اعتبار دراسة

ما نصف حديث الناس الى انفسهم بأنه تفكير بصوت مرتفع ، فمن الواضح ان ثمة علاقة وثيقة بين التفكير واللغة ، وتكمن الصعوبة في التثبت من ذلك كما يتضح من كتابات ادامز (1972) Adams (1) ومع ذلك نفى تعليم اللغات ، يتم التركيز على استخدام اللغة كوسيلة تخاطب بين الناس ، أى على وظيفتها الاجتماعية ، اذ لا داعى لاكتساب نوع من السلوك المعقد ما لم يكن نافعا للفرد وللمجتمع الذى ينتمى اليه ، بالطبع لا تمثل اللغة الصورة الوحيدة للسلوك البشرى في مجال التخاطب ، اذ قد يكون كل السلوك الصريح وسيلة للتخاطب بمعنى أننا نخرج باستنتاجات عن شخص ما من أى شيء يفعله ، أو من الملابس التى يرتديها ، أو من طريقة مشيته ، أو من طريقة تصفيف شعره . ولكن ذلك لا يزيد عن كونه وظيفة « عارضة » لسلوك غير لغوى ، لا وظيفته الرئيسية أو الوحيدة . ومن ناحية أخرى ، لا تمثل اللغة النوع الوحيد من سلوك وظيفته الرئيسية التخاطب ، فنحن نستخدم الاشارة ، ونلوح بيدينا ، ونرفع حواجبنا ، وتنتحج و « نحول ابصارنا » . كذلك لا يوصف كل سلوك صوتى بأنه لغوى : فالصراخ والزعييق ليسا من اللغة فى شيء ، بل ربما لا تزيد عبارات « الوداع » و « الترحيب » و « الاستفسار عن الحال » التى يمكن التنبؤ بها ، عن كونها سلوكا شبللغوى . فاللغة أو السلوك اللفظى عبارة عن نوع خاص من السلوك التخاطبى ومهمة العالم اللغوى هى تمييز اللغة عن غيرها من أنواع التخاطب الصوتى وغير الصوتى . فالمتحدث انما يتصرف بالكيفية التى يتصرف بها لان تلك هى حال جمهور المستمعين ، ولا يمكننا ان نأمل فى تفسير ما يحدث فى محادثة دون ان تضع فى اعتبارنا الصفات المميزة لكلا المستمع والمتحدث وسلوكهما ، ومع ذلك فكلاهما « يودى » بطريقة لغوية . واللغة فى هذه الوجهة الثانية عبارة عن حادث اجتماعى ، لا يمكن وصفه تماما الا اذا عرفنا كل شيء عن الناس الذين يستخدمونها ، وعن شخصياتهم ، ومعتقداتهم ، ومواقفهم ، ومعرفتهم بالعالم ، وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، وحالتهم الاجتماعية ، وماهية النشاط الذى يشتغلون به ، وعن سبب حديثهم ، وما سبق

ذلك الحديث من الناحيتين اللغوية وغير اللغوية ، وما يلى ذلك من احداث ، وعن المكان الذى يوجدون فيه ، ومجموعة من الحقائق الاخرى عنهم وعن الموقف .

اذا كان الناس يودون الاشتراك فى لعبة ما فعليهم الاتفاق على قواعدها ، فاذا كان ينبغي ان يحدث تخاطب وجب ان يشترك اللاعبون فى نفس التقاليد ، فصيحائى واياءاتى الخاصة بى لا يمكن للملاحظ تفسيرها ، ، شأنها فى ذلك شأن التعبيرات بلغة اجنبية لا يمكن تفسيرها ، ونحن نستطيع التخاطب مع الناس لانهم يشاركوننا مجموعة من اساليب السلوك « المتفق عليها » ، واللغة بهذا المعنى عبارة عن شيء فى حيازة مجموعة اجتماعية ، مجموعة من القواعد التى لا غنى عنها تسمح لعضائها بالاتصال ذهنى ، وبالتفاعل ، والتعاون بعضهم مع بعض : انها عرف اجتماعى . والحيوانات ، ايضا ، تشترك فى مجموعة من اشارات التخاطب التقليدية وبالطبع يطور البشر والحيوانات ممن يعيشون معا ، مجموعة مشتركة من الاشارات كوسيلة للتخاطب فيما بينهم ، فيمكن لكلى ان يخبرنى بالوقت الذى يريد الخروج فيه للتنزه ، واستطيع ان اطلب اليه الحضور عندى دون اللجوء الى اية لغة بشرية . ومع ذلك اصبح من الامور المسلم بها دائما انه ثمة اختلاف اساسى فى نوع التعقيد ، لا فى درجته فحسب ، بين لغة الانسان ومجموعة تخاطب الحيوان . واخيرا وضع هذا الانتراض الطويل الاجل موضع البحث ، وقد يكشف ، نتيجة للدراسات المتواصلة التى يجريها علماء الاعراق البشرية (الانثولوجى) ان ذلك الاختلاف ليس بالشدة التى كانت تفترض فيه (جاردنر وجاردنر (2) Gardener and Gardener (1969)

دراسة اللغة لغويا :

قد يبدو من العجيب تصوير الدراسة الثالثة للغة كدراسة « لغوية » ، فان ذلك يوحى بان المعالجين السابقين لم تكونا معنيين باللغة ، او ان المصطلح « لغوى » يستخدم بطريقة خاصة الى حد ما . وفى واقع الامر ، وباختصار ، هذه هى طبيعة الحال ،

(1) Adams, P. (1972) Language In Thinking, Pen juin
(2) Gardener, R.A and Gardener, B.T. (1969) « Teaching sign language to a chimpanzee », science, n. 165 pp. 644-72

كجهاز ، ويهدف الى توضيح بنية اللغة ، ويقوم بتصنيف الموجودات اللغوية ، وقيم العلاقات بينها ، وهو في معناه العام معنى تماما بالعلاقة بين المعاني والاصوات ، ولتفسير هذه العلاقة كان من التقليدي أن تضع المعالجة « مستويات للوصف » وتمثل انواع الموجودات المختلفة التي تعالجها ، وانواع العلاقات المختلفة التي تجدها بين تلك الموجودات ، وتحمل هذه المستويات مسيات مألوفة مثل بناء الجملة وعلم الصرف ، وعلم الاصوات الكلامية ، وعلم تمثيل او تصوير الاصوات ، وقواعد اللغة ، وعلم دلالات الالفاظ وتطورها ، او اذا ما استخدمنا المصطلحات الاكثر شيوعا : النحو والمفردات والنطق .

ومن المحتمل أن تكون الدراسة اللغوية للغة اكثر المعالجات شيوعا حيث ان تاريخها طويل ، سواء في داخل أوروبا او خارجها ، ولهذا السبب فهي قد تكون اكثر التناولات تقدما وتعقيدا من الناحية النظرية . ولا تمثل بياناتها في الانراد وسلوكهم بل في النصوص والتعبيرات المسجلة ، وهي لا تحفل بأوجه التمايز بين المستمعين والمتحدثين ، ويكيفية اكتساب الناس للغة ، او بالدور الذي تؤديه اللغة في المجتمع .

الا ان النجاح والصقل المطلقين للدراسة اللغوية للغة يكفنا غالبا ، وكما سبق لى القول أن النظر الى اللغة هذه النظرة يعد من أكثر الاساليب « موضوعية » ، ومع ذلك فاللغة ليست شيئا ذا وجود حقيقى ، والموضوعية هنا تعنى التجريد ، وقد مالت الدراسة اللغوية للغة الى فقد علاقتها بالانسان والمجتمع نتيجة لتجريدها على هذا النحو ، وكلما زادت النظريات وعمليات وصف بنية اللغة تقدما ، قل المبرر لتفضيل أحد اساليب وصفها على ما عداها من اساليب ، وقد وصلنا الى نقطة ينبغي عندها أن تكون دواع تبرير الوصف او النظرية الامثل اجتماعية او نفسانية (سيكولوجية) اى من حيث انسجامها مع أحد التناولين الآخرين .

المعاني الضمنية لتعليم اللغات :

الغرض من تدريس اللغات ، بالاضافة الى انه يجعل التلاميذ يتغلبون على عقبة تعليمية كاداء ،

وهو مستخدم هنا لعزو تناول اللغة ، ذلك التناول الذى تبنته الدراسة المعروفة باسم « اللغويات » ، ولكن نسبة احتمالا هنا لحدوث اللبس عندما اتخذ البروفيسور الن Allen (1) « الدراسة اللغوية للغات » عنوانا لمحاضراته الافتتاحية عام 1966 ، فقد استخدم نفس معنى المصطلح « لغوى » بالشكل الذى اعنيه ، وكذلك نجد في كتاب جلمسليف Hjelmslev (2) « اللغة » (1963) تعبير « اللغويات اللغوية » ، موحيا بأن اللغويات قد تتضمن لا المعالجة الخاصة التى انا بصدد تلخيصها فحسب بل كذلك المعالجتين اللتين سبق لى التحدث عنهما . وفي هذا المقام كان جلمسليف يتنبا بالاتجاه الذى تتحرك اليه اللغويات بشكل متزايد ، اى كدراسة شاملة للغة ، وقد سبقت الاشارة الى تلك الدراسة على انها لغويات واسعة النطاق . وفي الواقع سأستخدم مصطلحى « لغويات » و « عالم لغوى » بمعناها العام والشامل ما لم يكن من الضرورى - في سياق معين - تحديد المعالجة الجارى دراستها كما هو الحال في هذا القسم .

وأحيانا كان يطلق على الدراسة اللغوية للغة اسم دراسة اللغة من قبيل تكريمها (دى سوسر (De Saussure, 1961) (3) فاذا حسنا المعنى المتضمن من امكان دراسة اللغة لغرض « نافع » مثل تعليم اللغات ، اذا فهذا التعريف يميز تناول اللغة بهذه الكيفية عن التناولات التى تم تلخيصها ، بترسيخ اللغويات كدراسة مستقلة ، في حين انه يمكن اعتبار أن التناولات الاخرى تدخل ، على التوالى ، في نطاق علم النفس وعلم الاجتماع . ويجب أن يكون ثمة نوع من الانسجام بين الاطار الوصفى لدراسة اللغة واساليب تلك الدراسة بالنسبة للفرد وبين دراسة السمات الاخرى للسلوك البشرى والقدرات الادراكية . وبالمثل ، يجب أن تكون دراسة اللغة كظاهرة اجتماعية في انسجام مع نظريات البنية الاجتماعية ، والسلوك الاجتماعى ، والثقافة الانسانية . الا ان الدراسة اللغوية للغة تقيم جهازها النظرى الذاتى ، ولها أسلوبها الخاص في العمل ، وسيلها في النظر الى بياناتها وانتقائها . هذا ، والتناول اللغوى من أكثر التناولات « موضوعية » ، فهو يهتم باللغة

(1) Allen, W.S. (1966), « The linguistic study of languages », in P.D. Stevens (ed.), Five Inaugural Lectures, OUP.

(2) Hjelmslev, L. (1963), Language: An Introduction, F.J. Whitfield (trans.)

(3) De Saussure, F. (1961), Course in General Linguistics, W. Baskin (trans.) Peter Owen.

التعليم التقليدي للغات ، وفقا لهذا ، وفي الوقت الحاضر نجد أن ما يمكن قوله ، ولنا مبرر في ذلك ، حول التعليم التقليدي للغات هو أن أساليبه لم تعد مناسبة لمجموعة جديدة من المتطلبات والتوقعات .

غير أننا حين نتحدث عن السلوك المقبول وغير المقبول أو عن اللغة المناسبة أو غير المناسبة ، فإننا بذلك نتخذ رأيا في اللغة كعرف اجتماعي ، مجموعة من أساليب السلوك يضع المجتمع شروطها أو تحددها السمات الثقافية في ذلك المجتمع ، فغير الصحيح أو غير المناسب هو ، ببساطة ، ما لا يتوافق مع المعايير المشتركة لمجموعة معينة ، إذ أننا بتدريسنا للغات ، إنما نعد الطالب للمشاركة في مجموعة اجتماعية أخرى ، مجتمع لغوي آخر مفاهيم مجتمعه ، وليؤدي دورا في ذلك المجتمع ، واللغة غير المقبولة أو غير المناسبة تحول بين الطالب وبين التفاعل أو التخاطب بطريقة مرضية مع الآخرين من أعضاء ذلك المجتمع . إنه قد يفشل في تحقيق غاياته وقد يفشل في التخاطب أو قد يساء فهمه ، وقد يؤدي مشاعر الآخرين أو قد يجعل من نفسه مثارا للسخرية .

هذا ، ولا تتوافر نفس الأهداف الاجتماعية بالنسبة لجميع الطلبة فيما يتعلق بتعلم اللغات ، إذ أن نطاق الأدوار التي يودون تحقيقها سيكون مختلفا ، فقليل منهم يودون لو أصبحوا شعراء في المجتمع اللغوي الجديد ، والبعض الآخر قد يودون أن يصبحوا زوجات أو أزواجا ، ويقنع معظمهم بأن يصبحوا « أجانب » ، وعلى هذا فنعد تخطيط عمليات تعليم اللغات ، يجب علينا معرفة الأهداف الاجتماعية المتوخاة ، والأهداف الشخصية التي يود الطالب تحقيقها . وبمعنى آخر علينا أن نقرر أي « نوع » من اللغة نعلمه إياه ، فمفهوم « اللغة » أو « اللهجة » مفهوم اجتماعي وليس مفهوما « لغويا » ، فنحن نعلم لغة معينة وليس أية لغة كانت .

وربما كان أكثر الانتقادات التي توجه إلى التعليم التقليدي للغات اقتناعا ، باصراره على الصواب ، وتواعد النحو ، وأهدافه المحدودة ، هو انتقاره لهذا البعد الاجتماعي ، فقد افترض أن اللغة عبارة عن مفهوم لغوي ، ويبدو أنه — التعليم التقليدي للغات — لم يعبأ كثيرا بفكرة المواعمة ، وبالإسلوب القائل

هو تمكين الطالب المبتدئ من التصرف على نحو يجمل في استطاعته المشاركة ، بدرجة ما ولاغراض معينة ، كمراد في مجتمع غير مجتمعه ، وقد تختلف درجة رغبة أي طالب معين في المشاركة ، فقد ينشأ قراءة المؤلفات الفنية فحسب ، أو قد يرغب في الاشتغال بالوعظ في بلد أجنبي . وتتطلب درجات المشاركة المختلفة هذه مستويات مختلفة من المهارة في الأداء اللغوي ، وهي كذلك تنطوي على تقسيم السلوك اللغوي إلى أنواع مختلفة من المهارات ، أما من الناحية التقليدية فهذه الأنماط المختلفة مسميات مختلفة : الكتابة ، والكلام ، والإملاء ، والقراءة بصوت مرتفع وهلم جرا . ومثلما تختلف الأنواع المختلفة من الأداء اللغوي ، تختلف الآليات الكامنة وراءه ، وقد تكون موضع بحث (انظر الفصل السادس) ، فمن الواضح أن تعليم اللغات كان وما يزال يعد تنمية لمجموعة من مهارات الأداء في الطالب ، ودائما يعبر عن المناهج والجدوال الزمنية من حيث المهارات التي يجري اكتسابها « اليوم سيكون لدينا درس في المطالعة ، وغدا درس في المحادثة » . وإذا تحدثنا في أية مناقشة حول تعليم اللغات عن تنمية المهارات من قبيل التحدث أو فهم الحديث ، فإننا بذلك نتبنى رأيا نفسانيا (سيكولوجيا) عن اللغة ، وتكون نظرتنا لها على أنها من أمور السلوك الفردي ، وسواء اعتبرنا هذا السلوك مجموعة من العادات أو الاستجابات الممكنة ، أو مجموعة من المعارف أو مجموعة من القواعد ، فإن ذلك يتوقف على الأهمية النفسانية (السيكولوجية) المعينة التي نوليها السلوك اللغوي للفردي وكيفية اكتساب ذلك السلوك . فمن شأن ذلك أن يحدد ، مثلا ، موقفنا من وظيفة التدريبات والفائدة منها ، واعطاء التفسيرات النحوية ، وقيمة التكرار والحفظ عن ظهر قلب ، وفائدة الإملاء ، وأهمية الاستماع فحسب ، وأي كان القرار الذي نتخذه في مجال الأساليب فإنه يعنى تبني رأي في اللغة كظاهرة لعلم النفس الفردي . وما ميز ما يسمى بالتعليم « التقليدي » للغات لم يكن كافيا من حيث امتقاره إلى وعى بالبعد النفسي للغة ، بل لأنه حد من نطاق السلوك أو المهارة المتوخاة ، ولكن ذلك ليس مبررا لتوجيه النقد للتعليم التقليدي للغات ، فالمهارات التي حاول ذلك التعليم تنميتها كانت ، إلى حد ما ، هي المهارات التي يفترض أن المجتمع اعتبرها مناسبة في ذلك الوقت ، وقد تحددت بعض أساليب

« نعم » من الناحية النفسية ، و « ربما » من الناحية اللغوية ، هذا ، ولا يبدو أن الغموض يكتنف تعليم النطق ، إذ بالرغم من أن كلا من العالم اللغوي ومعلم اللغة يمكنه قول الكثير حول نطق اللغة ، فإن مناقشة من هذا القبيل لم تثر حول « تعليم النطق » ، فهو يدرك بصفة عامة بمعناه النفساني محسب ، من حيث جعله الطالب يتصرف بأسلوب معين . كذلك فإن الغموض لا يعترى « تعليم المفردات » والسبب في ذلك جسد شائق إذ على العكس من « التحدث عن النحو أو النطق » ، فالتحدث عن المفردات شيء نستخدم قدرا كبيرا منه في محادثتنا اليومية ، فنحن عندما نصدر تعريفا من أى نوع ، فاننا « نتحدث عن » المفردات وهى تقريبا النوع الوحيد من « الحديث عن » المفردات الذى يمكن للمعلم العادى اداؤه ، ويمكن للعالم اللغوي أن يفعل القليل ولكن بطريقة ليست أفضل ، « فالتحدث حول المفردات » أسلوب مقبول « لتعليم المفردات » ، كما أنه لم يكن مثارا للنقد مثلما كان الامر بالنسبة لتعليم النحو « بمعناه اللغوي » . وبالطبع ، ثمة سبل اضافية لتعليم المفردات مثلا ، بالاساليب الظاهرية التى لها مبررها الاكبر في علم النفس عنه في اللغويات .

وتتمثل الصلة الوثيقة بين الدراسة اللغوية وبين اللغة في تعليم اللغات في انها توفر اتسوعا مفصلة وشاملة من اللغة ، وما على المرء سوى أن يتخيل وضع الامور حين ينبغى عليه صياغة منهج لعملية تعليم اللغة بمعناها النفساني اى من حيث المهارات وانماط السلوك اللفظي الواجب تلقينها ، للتحقق من أن تلك هى اوضاع الامور ، وغالبا ما يصادف المرء خططا من هذا القبيل ، بالرغم من عدم اهليتها للمسمى « منهجا » ، فهى بطبيعتها تدخل في نطاق الاهداف العامة بمعنى « أنه يجب أن يكون في مقدور الطالب — عند نهاية المقرر — الكتابة بدون اخطاء نحوية كثيرة ، والتحدث بطلاقة مع أحد ابناء اللغة الاصليين كما يمكنه القراءة بسهولة ويسر في مؤلف غير فنى » ، وقد يبدو وضع منهج بالمعنى الاجتماعى امرا أكثر سهولة : « يجب أن يكون في مقدور الطالب شق طريقه كسائح في البلد الاجنبى ، وشراء التذاكر ، وحجز الحجرات في الفنادق ، والسؤال عن الطريق .. الخ

بان السلوك اللغوي ايجابى بالنسبة لمواقف اجتماعية مختلفة ، ومن المزايا الكبرى لتعليم اللغات في العصر الحديث انه يتناول اللغة تناولا أكثر اجتماعية ، وبأنه يعنى بمشاكل وظيفتها التخاطبية في المواقف الاجتماعية المختلفة ، ويتضح لنا ذلك في الاصرار على تقديم « عرض » اللغة في مواقف ، واستخدام المعينات السمعية والابصارية ، وفي التأكيد على الامثلة اللغوية « الطبيعية » فلم نعد نلاحظ عبارة « قلم عمى » أو « صعق البرق راكب الحصان » .

وارتباط الدراسة اللغوية باللغة من الوضوح بحيث لا يحتاج الى مزيد من مناقشة عند هذا الحد ، فتقسيم ما يجرى تعليمه الى نطق ، ومفردات ، ونحو ، ناشىء عن مقاييس وصف اللغة ، الا اننا ما زلنا نصادف لبسا بين هذا التناول والتناول النفساني عند ما نستمع الى المناقشات التى لا تنتهى حول تدريس النحو ، وتنشأ البلبلة من أن المصطلح « نحو » شأنه شأن المصطلح « لغة » غامض مبهم كما نوه بذلك كويرك (1) Quirk وجرينبوم Greenbaum وليش Leech وسفارتفيك Svartvik (1972) فهو يستخدم بكلا معنييه النفساني واللغوي ، ويحاول المعلمون ، أحيانا ، ازالة هذا الغموض بقولهم ان ما ينبغى علينا عمله هو أن نعلم الناس اللغة ، لا أن نعلم الناس « عن » اللغة ، ومعنى قولهم اننا نحاول اخراج متحدثين باللغة ، لا علماء لغة ، اى اناسا يستطيعون « التحدث باللغة » لا « التحدث عن اللغة » وبالطبع ، يمكن لعلماء اللغة دائما — في آخر المطاف — التحدث عن لغة لا يتكلمونها . وتتمثل احدى الانتقادات التى ثارت ضد الاساليب التقليدية في أن علماء اللغة حققوا نجاحا أفضل في التحدث عن اللغة بدل الذى حققوه في « التحدث بها » ، ومن ثم فتعليم قواعد النحو قد يفهم من الناحية الثقافية على انه يمكن الطالب من اخراج منطوقات يسميها علماء اللغة « نحوية » ، ومن الناحية اللغوية كتعريف للطلاب بقواعد نحو اللغة وسواء كان تعريف الطالب بقواعد نحو اللغة أسلوبا مفيدا لتنفيذ تعليم اللغة لمشار مناقشة من حيث نفسانية تعليم اللغات، والاجابة على التساؤل هل ينبغى علينا تعليم قواعد النحو ؟ هى

(1) Quirk, R. Greenbaum, S., Leech, G., and Svartvik, J. (1972) A Grammar of Contemporary English, Longman.

« لغوية » - قوائم البنيات النحوية والمسرديات ،
وقوائم الاصوات ، ومقومات النطق التي يجب
« اتقانها » . هذا ، والتناول اللغوي مسؤول عن
تحديد كيفية « تصوير » ما ينبغي علينا تدريسه ، وهذا
لا يماثل قولنا من أنه مسؤول عن « تحديد » ما ينبغي
تدريسه ، وهو لا يسهم بطائل بذكر في تحديد كيفية
تدريسنا في المجالات اللغوية .

بلغة البلد الاجنبي » ، وتكن الصعوبة في كلنا الحالتين
في أنه مهما بدت قائمة الانجازات طويلة ، فغالبا ما
تكون هذه الانجازات غير واضحة وغير محددة وغير
نظامية .

والحقيقة انه اذا اردنا رسم خطة تفصيلية جدا
لعملية تعليم اللغة ، وجب التعبير عن ذلك بمصطلحات



نحو التعريب في مجال العلوم والتكنولوجيا

الدكتور د. فهد بن عبد الله الترابي
الرياض

مقدمة :

ونحى في مطلع هذه المقالة الجهود الكثيرة التي بذلت من بعض العاملين في المجال العلمي والتقني وذلك باستصدار الكتب العربية والمترجمة ، وكذلك نحى أساتذة الجامعات الذين أثبتوا عن طريق الممارسة انه بالإمكان تقديم المواد العلمية باللغة العربية بالرغم من أن هذه المحاولات لم يتح لها أن تتمم في جميع المعاهد أو لكل المواد الدراسية وذلك من ندرة الكتب العلمية العربية وقلة التأليف العربية في مجال التكنولوجيا .

ولقد كان من ضمن العوامل التي أدت الى كساد سوق الكتب العلمية العربية قلة الطلب عليها من الجامعات والمعاهد ، وانصراف العاملين في المجال العلمي عنها ، حيث تدار جيل الأعمال الهندسية والصناعية والإدارات الفنية المختلفة باللغات الأجنبية . أما بالنسبة للمجلات العلمية العربية فان اثرها

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وبعد .

فلقد حظى التعريب في مجال العلوم والتكنولوجيا باهتمامات كثيرة منذ أول عهد النهضة العربية الحديثة . وظل أمره يبحث في المؤتمرات واللقاءات العلمية على مستويات مختلفة . ولقد أصبح من المسلم به كنتيجة لاجماع الآراء أن التعريب ضرورة لبناء الأمة العربية ، ومن المرتكزات الأساسية لنهضتها .

ومن هذا المنطلق لا حاجة بنا لإقامة حوار حول حتمية التعريب لمستقبل الأمة العربية وحسبنا من ذلك هذا الاجماع ، لذا نحونا بهذه المقالة الى ابراز بعض مستلزمات التعريب من مؤسسات ووسائل ، عسى أن يحقق الله الانفتاح المرجو على العلوم والتقنيات وأن يمكن للتعريب في اقل زمان واكمل صورة .

كما يكون الجمع مسؤولاً عن التعريب وخطوات سيره ونشر المعاجم العلمية ، ويكون من صلاحيته توجيه البحث العلمى ونشر الموضوعات التى تتصل بحاجة الامة وأولوياتها .

2 - دور النشر العلمية :

تكفل هذه بمسؤولية نشر الكتب والمجلات العلمية وجميع ما يصلها من المعاجم ودواوين الترجمة ، على الا تدار على أساس تجارى بحت حيث هى - أى دور النشر العلمى - موقومة لتلبية متطلبات الكتب الدراسية ومجلات البحوث والنشرات العلمية .

3 - ديوان الترجمة :

يكون مسؤولاً عن تتبع النتاج العلمى فى التقنيات فى خارج البلاد العربية وتقديم دوريات عنها ، ثم ترجمة جميع ما يطلب منه فى ذلك لأغراض البحث او الصناعة والتعمير .

4 - مركز التوثيق :

يقوم بجمع وحفظ المجلات والنشرات والكتب العلمية ومد الباحثين والعاملين بما يحتاجونه حول أى من الموضوعات التى تدخل فى اختصاصه .

وحتى تعمل هذه المؤسسات المذكورة بكفاية عالية ، لا بد أن يوظف لها أصحاب الاختصاص كل فى مجاله ، كما يجب الا يرض عليها بالمال والصلاحيات التى تحقق اهدافها .

وقد يتراءى اول الامر أن نفقات التأسيس كبيرة ولا تتناسب مع مردودها السريع ، ولكنها ضريبة ارساء المرتكزات العلمية التى لا غنى عنها لانماء الامة العربية فى ظل قيمها ودينها وتراثها الاسلامى - بل أن هذه النفقات سوف تنخفض بعد تخطى مرحلة الانشاء كما أن دور النشر قد تحقق أرباحاً من المطبوعات والمنشورات الفنية .

تعريب الكتب العلمية : (التحليلات الرياضية) :

درج كثير من المؤلفين فى مجال تعريب العلوم على كتابة المعادلات والتحليلات الرياضية باللغة الأجنبية ، وقد لا يخفى أن هذه الطريقة فضلاً عما تحدثه من

تليل ومحدود لضيق وسائل النشر وانعدام المناخ العلمى وكان ذوى الاختصاص لم يهتموا بأمرها الاهتمام المطلوب بل انصرفوا عنها انصرافاً . لذلك لجأ كثير من العلماء العرب لنشر بحوثهم فى الخارج حيث وسائل النشر العلمى متوفرة وحيث يتنافس المتنافسون لإبراز نتاج افكارهم وثمره جهودهم مما جعلنا نسمى بأفضل انتاجنا العلمى الى خارج بلادنا ، ولا يخفى أن المجلات العلمية الأجنبية لا تنشر من الموضوعات الا ما يتصل باهتمامات أصحابها ، ومن ثم فإن جهود هؤلاء العلماء العرب ليست مرتبطة فى المكان الاول بحاجة الصناعة والتعمير المحلية ، الا بذلك القدر الذى تحتمه طبيعة البحث العلمى الشمولية .

وإذا كان لا بد من تحول عن هذا الاتجاه فإن التعريب حرى بأن يربط الانتاج العلمى العربى بمشاكل البلاد القائمة . وجعل موارد الامة الطبيعية والصناعية هى حقل البحث الاساسى لدى العلماء ، كما أن ذلك يجنبهم بعض الموضوعات فقط من أجل احتمال نشر نتائجها بالخارج ، على أننا لا ننكر على احد من الباحثين أن يكون له سهم على النطاق العالمى متى سئحت له فرصة لذلك ، كما أننا لا ندعو الى تقييد الباحثين أو الحجر على الروافد الفكرية ، بيد أن التعريب والنشر باللغة العربية ضمان لجلب انظار العلماء للاوليات التى ينبغى أن يلتفت اليها .

هذا ولتحقيق انتاج علمى سليم بالعربية ، لا بد أن تتوفر له جميع المقومات اللازمة فى مجال البحث والنشر والتأليف . ويمكن تلخيص حاجة التعريب من المؤسسات المتخصصة فى الآتى : علماً بأن الآراء قد تتباين فى كيفية اسناد المهام المختلفة بين المؤسسات ، أو دمج بعضها فى بعض .

1 - الجمع العلمى العربى :

يقوم هذا الجمع مقام المعاجم العلمية الماثلة فى الخارج ويكون رقيباً على تطور العلوم التقنية . وتتفرع عنه أمانات للفروع التكنولوجية المختلفة والتى يناط بها نشر المجلات العلمية المتخصصة وتحضير المؤتمرات والقيام بالدراسات والاحصائيات المتعلقة بالكفاية العلمية بالنسبة للبلاد العربية .